رسالة السلوان

(من وحي كتاب رسالة الغفران لأبي العلاء المعري)

مواطن سعودي مجهول

أنت ذاهب الى المكان الذي قدمت منه أول مرَّة

2025

مركز القانون العربي والإسلامي
Centre de droit arabe et musulman
Ochettaz 17, Ch-1025 St-Sulpice
Tél. fixe: 0041 21 6916585
Tél. portable et Whatsapp: 0041 78 9246196
Site: www.sami-aldeeb.com
Email: sami.aldeeb@yahoo.fr

الفهرس

كلمة الناشر

وصلتني الرسالة التالي:

عزيزي الدكتور سامي،

أرجو ان تكون بخير، أنت ومن يعزّ عليك.

مر وقت منذ ان كتبت لك .. تركت المدينة التي كنت أسكن فيها ولجأت الى قرية نائية في صحراء نجد حيث أعيش الآن لوحدي في عزلة. اعتدت أن أقضي ليلي تحت النجوم مرتلا أبياتا من شعر أبي العلاء الذي طالما أحببت منطقه ،، وفي الأشهر الماضية عدت إلى رسالته متأملا لغتها الصعبة وسخريتها اللاذعة وحواراتها مع الشعراء ومصائرهم.

من وحي ما فعل المعري خطر لي أن أحاكي فكرته فشرعت في كتابة «رسالة السلوان» على منوال «رسالة الغفران». جعلتُ راويها «ابن السارح» على غرار «ابن القارح»، واستحضرتُ فيها زمننا هذا وبيئته ومشاهيره بدلًا من شعراء الجاهلية، وطرقتُ بعض ما تناوله أبو العلاء من قضايا العدل الإلهي والنقد الفلسفي، بلغة تميل إلى السخرية كما فعل هو في «كوميدياه الإلهية» ومستلهما فكرته في رسالة عصرية قصيرة وخفيفة يفهمها الجميع.

وحين فرغت، خشيت أن تختفي كلماتي قبل أن يطلع عليها أحد، وأنا الذي لا أجد وسيلة لنشر ما أقول، فها أنذا أعود لك مرة اخرى لتطّلع عليها وتقول لي رأيك ان كانت تستحق نشرها عندك مثل ما فعلت مشكورا من قبل مع كتابي «عزيزي الله».

تحياتي.

هذا هو الكتاب، آملًا أن يجد فيه القارئ مادة للتأمل كما في كتابه السابق «عزيزي الله» والذي يمكن تحميله مجانًا من هذا الرابط:

https://www.academia.edu/43739684

البداية

أنا علي بن منصور بن عبد الله، المعروف بابن السارح. والدي، أمطر الله عليه سحائب مغفرته، كان يرعى إبله في وادي الجن الأحمر قرب قريتنا الرغبة، ويتعقب الطرائد أسفل سفوح خشم الحصان، إحدى قامات جبال طويق الشامخة. حين ظهر الزيت تحت باطن الأرض توقف والدي عن رعي الإبل فوق سطحها، بعد أن فاضت الأموال في أيدي الناس، وتبدّلت الأحوال، وانقلبت الدنيا رأسا على عقب، فانتقل مع زوجته إلى المدينة بحثا عن الرزق، وهو الذي لا يفقه شيئا في أمور البيع والشراء، لينتهي به الحال حارساً في مدرسة حكومية، وهناك كان مولدي.

لم أكمل من دراستي غير المرحلة الابتدائية، لكن شغفي بالقراءة وحب المعرفة لم يفارقني، وما تعلمته في صفوفي الأولى كان كافياً لأشبع نهمي وأروي فضولي في اكتشاف كل ما هو جديد. عملت في صغري متطوعاً في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بعد أن توسّط لي عمي لدى شيخ المركز والذي كان له يد عنده في تصريف بعض ماشيته. بدأتُ حياتي الوظيفية بملاحقة النساء في الأسواق والتأكد من أن لا يظهر شيء من تحت عباءاتهن، خصلة متطايرة من شعرهن أو لا سمح الله، جزء من بشرتهن لم ينتبهنَ لها. أُغلق المحلات وقت الصلوات المكتوبة مُمسكاً بخيزرانة، ألوّح بها عند الحاجة، لإثارة الخوف في نفوس المتسوقين ومطاردة من يتقاعس عن أداء الصلاة في المسجد. لم تكن طباعي قاسية ولم أكن سيء المزاج كبعض رفقتي، خصلة ربما ورثتها من أمي، تنزّلت شآبيب الرحمة على قبرها؛ بل كنت ليّناً متسامحاً حتى مع من يتأخر عن حضور صلاة الجماعة، الأمر الذي جلب لي الاستهجان من رؤسائي ورفاقي في المركز، إذ رأوني هيّنا متساهلاً وغير متشدّد بما فيه الكفاية.

تبدلت الأحوال وتغيرت الأزمان، وحلّ عهد جديد زاهر، حُلّت معه هيئة الأمر بالمعروف وانتهت لجان النهي عن المنكر. قدّمت طلبا للعمل، ولكن هذه المرة، في هيئة أخرى، هي هيئة الترفيه. قُبل طلبي على الفور ومن دون أي واسطة، ربما لما أحمله من خبرة سابقة في التعامل مع الفتيان والفتيات وتنظيم الفعاليات وإدارة التجمعات والحشود. خفّفت من لحيتي واستبدلت شماغي بقبعة وعصاي بجهاز قارئ الباركود. عملي يتطلب تنظيم سيارات الزوار القادمين إلى فعاليات الهيئة وتوجيههم نحو أماكن وقوفهم بسلاسة وترتيب. استمريت سعيدا في عملي لبضعة أسابيع، الى أن حدث في ليلة من الليالي مالم يكن بالحسبان. كنت كعادتي أشير للسيارات كي تتبع تعليماتي للوقوف إلا أن إحداها انحرفت عن مسارها واصطدمت بي بقوة أفقدتني الوعي. كانت تلك الحادثة بداية قصتي التي أسردها هنا.

المحشر

عيناي مُثقلتان، أبذل كل ما بوسعي لأفتحهما أو حتى لأرمش بهما، لكنهما تظلان مغلقتين بإحكام وكأنهما أطبقتا بشريط لاصق يمنعني من رؤية ما يدور حولي. أحاول عبثا أن أتحرك في مكاني أو أعدّل من وضعية رقودي، لكن هيهات! فجسدي لا يطاوعني وكأنه ترك لي هذا الوعي الذي استيقظ فجأة. ماذا يحدث، ولمَ لا أستطيع أن أشعر بيديّ أو قدَميّ؟ أكرر المحاولة، مرتين وثلاث. أحاول الصراخ، عسى أن يسمعني أحد ويأتي ليساعدني وينظر ما بي، لكني لا أقوى على الحديث. حتى الكلام لم يجد له مخرجا من فمي. لساني خانني ولم أعد أشعر بأي شيء، وكأن كل إحساس لدي قد توقف، إلا أن عقلي ما زال يعمل - وليته لم يعمل - ويدرك - وليته لم يدرك - حالتي التي لم أتمكن بعد من استيعابها وإيجاد الوصف المناسب لها. وحده عقلي كالسيف المصلت علي، لا يكف عن الوعي. فجأة، أشعر بخفة تسري في جسدي، وكأن ثقله قد انفصل عن روحي أو كأن وزني لم يعد له وجود، ثم ما ألبث أن ارتفع قليلاً عن مكان رقودي. أستمر في الارتفاع بينما يصلني صوت باب يُفتح وهمسات تتسلل قادمة من الأسفل. شعرت بالأمل واستبشرت خيرا، فهذا سمعي قد عاد للعمل وإحساس بسيط في أطرافي، وما زاد من سعادتي هو أنني بدأت أشعر بالضوء. فتحت عيني ببطء لأتفاجأ بأنني أقترب من سطح ما، عرفت لاحقا أنه سقف الغرفة. ارتفع ثم ارتفع حتى انقلبت على وجهي لا إراديا قبل أن أصطدم، لأجد نفسي معلقًا في الهواء. نظرت إلى الأسفل، فرأيت جسدًا مسجّى على سرير في غرفة ذات رائحة كريهة، رائحة الموت المؤجل. حمدت الله أنّ بعضَ حواسي مازالت تعمل.

أدركت الآن أنني في غرفة داخل مبنى قد يكون مستشفى، خمّنت ذلك بعد أن لاحظت وجود بعض المستلزمات الطبية وملاءات قديمة حول السرير، وشخصَين يبدو من ملابسهما أنهما ممرضَين. لابد وأنني أحلم،

فقد قرأت مرة أن الأحلام الأكثر شيوعًا هي تلك التي يطير فيها الإنسان، وكأن الطيران رمز للحرية التي ينشدها المرء للتحرر من قيود آلامه ومآسيه. صوت صرير الباب يخترق أذني، وأنا الذي كنت دائمًا أتحسس من صوت الطباشير على السبورة. لمَ لا يصلحون باب هذه الغرفة؟ يا له من مشفى متهالك. مسكينٌ هذا المريض المسجّى هنا؛ فالجو الخانق في الغرفة يمكن أن يُمرض حتى الأصحاء. فجأة أسمع صوتًا مألوفًا. يدخل شخص ثالث إلى الغرفة، ومعه امرأة أعرفها جيدًا. إنها زوجتي! لكن ما الذي تفعله هنا؟ يتحدث معها الرجل الواقف على يسارها بنبرة باردة، ويبدو من هيئته أنه الطبيب، يتحدثان عن إزالة الأجهزة التي تُبقي المريض على قيد الحياة. تكشف الغطاء عن المريض محاولة أن تتمالك نفسها، ثم تلتفت إلى الواقف بجانبها، مما يتيح لي رؤية وجه المريض. ويا لهول ما أرى. إنه وجهي!

بقدر ما هو منظر صادم ومرعب رؤية نفسي أسفل مني، إلا أنني كنت على نحو غريب هادئًا وغير مذعور من هول الموقف ولا حتى مرتبكًا. لا أعلم لماذا شعرت بالسكينة في تلك اللحظة وكأنني متفرج لا صلة له بما يرى. ربما لأنني كنت على يقين بأنني أحلم وأدركت حينها ذلك، وكأنني في حلم شفاف. لطالما قرأت عن تجارب الاقتراب من الموت (NDE)، تلك التي يُختطف فيها الوعي إلى عالم بين الحياة واللا حياة، لكن لمْ يخطر ببالي أن أعيش يوما واحدًا منها وأكون شاهدًا عليها. هل أنا بالفعل أمرّ بهذه التجربة الآن؟ وهل هذا يعني أنني حقًا في مستشفى وأن حالتي خطيرة إلى هذا الحد؟ جسدي المسجّى على السرير وتلك الأجهزة والأحاديث الباردة المشوبة بالحذر، وقبل هذا نفسي المعلقة في الفراغ. كل شيء يوحي بأنني بين الحياة والموت. أحاول أن أرجع بالزمن قليلا للوراء وأسترجع اللحظات التي سبقت فقداني للوعي. كل ما أتذكره هو أنني استيقظت هذا الصباح، نشيطا كالعادة وتناولت قهوتي ثم ركبت سيارتي متجهًا إلى عملي، في إدارة الفعاليات الخاصة بمركز الترفيه.

هل حدث شيء بعدها؟ ربما تعرضت لحادث على الطريق وفقدت الوعي ونُقلت بعده إلى هذا المستشفى؟ يبدو ذلك ممكنًا واحتماله واردٌ جدا. يزداد أنين زوجتي المسكينة وتعلو أنفاسها وهي تتوسّل إلى الطبيب بعيون دامعة ليمنحني بضع ساعات إضافية قبل أن يزيل أجهزة الإبقاء على الحياة التي تبقي على آخر رمق فيّ.

يغادر الأشخاص الموجودون في الغرفة، لأبقى وحدي. أنا مع أنا، أنا ونفسي. أنا السابح في فضاء السقف، أراقب، وأتأمل، وأتساءل مع أنا الآخر، المسجّى بصمت على السرير. أنا الذي أعي وأفكر وأندهش، مع أنا الذي لا حول له ولا حسّ. أنا الواعي بحالي، مع أنا الغائب عن حالي، أنا الذي ينظر من فوق مع أنا المستلقي في الأسفل. يا ترى من أنا ومن أكون؟ هل أنا ذلك الجسد الذي تركته ممدّدا على السرير، أم هو الشيء الذي انفصل عن الجسد ويطفو فوقه الآن كظل لا مرئي، يعيش الحدث الآني ويفكر به؟ أيُّ «أنا» هو الأصل، وأيهما الصورة؟ وأين تبتدئ الروح وتنتهي المادة؟ يقطعُ سيل تساؤلاتي صوت مواء قطة قادم من زاوية الغرفة. أراها تحت النافذة، ترفع رأسها نحوي وتحدق بي بفضول، لكن كيف وصلت إلى غرفة المرضى وهل تراني؟ يقال إن القطط ترى ما لا يراه البشر. فجأة، أشعر وكأني أهوي سريعا نحو السرير لأعاود الالتحام مع نفسي، كما لو أنني أُجبرت على العودة إلى جسد ضاق بروحي. إلاّ أن سقوطي المباغت يفزع القطة فتقفز على جسدي الممدد وتمشي على صدري كما لو كنت وسادة، ثم ما تلبث أن تقفز ثانية لتدوس بمخلبها على ماكينة ضخ المورفين، مُضاعِفةً الجرعة التي تدخل إلى جسدي. في تلك اللحظة، أبدأ بالارتفاع مجددًا ولكن هذه المرة مخترقًا سقف الغرفة إلى الدور العلوي، وأواصل الصعود. أمرّ عبر غرف المستشفى مخترقاً الطوابق واحدًا تلو الآخر، أرى المرضى المنوَّمين في حالات مختلفة ومفارقات عجيبة؛ بعضهم يضحكون وأهلهم حولهم مستبشرون، يستعدون للمغادرة بفرح وأمل، وآخرون مهمومون

مغمومون، يودّعون أحباءهم بالحزن والدموع. مشاهد بين الحياة والموت، متجاورة، متوازية، لا يربطها سوى أنفاس تتردد بين الحناجر. أستمر في الارتفاع صعودا حتى أصل إلى الطابق العلوي للمستشفى، لأخترقه وأصعد نحو الفضاء، متحررًا من كل ما يربطني بالأرض.

تتقلّص معالم المدينة تحت ناظري لكني ما زلت قادراً على تمييز بعضها فيما أواصل الارتفاع. هناك المستشفى الذي صعدت منه وبدأت منه رحلتي هذه، وهناك مبنى هيئة الترفيه التي أعمل بها، وتلك مدرستي التي ارتدتها صغيرًا وحملتْ جنباتُها أولى دهشاتي بالحياة. ظننت لوهلة أن هذا هو المشهد الختامي للحلم، وأن هذه هي اللحظة التي سأستيقظ فيها وأعود إلى جسدي الذي غادرته، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، إذ ما زلت أعلو وأسبح في الهواء متحررا من كل القوانين الطبيعية وليس الجاذبية فحسب. نحنُ في شهر نوفمبر، والجو يزداد برودة كلما ارتفعت. تمنيت لو أنني التقطت معي بعض الملاءات التي كانت بجانب سريري في غرفة المستشفى كي ألتحف بها. فجأة، يخترق صوت محركات نفاثة عنان السماء، فالتفت نحو مصدر الصوت لأرى طائرة تمر كالسهم بالقرب مني وكادت أن تصطدم بي. استطعت أن أميز شعارها ولونها العنابي بل وحتى رؤية بعض وجوه المسافرين، وهم يلتقطون صورًا من خلف نوافذ الطائرة بهواتفهم ليضيفوها إلى ألبوماتهم العائلية. أظنها تابعة للخطوط القطرية. تذكرت حينها رحلة شهر العسل مع زوجتي إلى سويسرا على متن تلك الخطوط، لكنّ الحال مختلف تماماً الآن. كنت وقتها مستلقيا داخل الطائرة في جو متعادل الضغط، أتناول مشروبًا باردًا وأشاهد فيلمًا كوميديًا لهاني رمزي، بينما أنا الآن أحلق بلا جناحين وبلا مقعد وبلا مقصورة ولا حتى اكسجين، أتنقل بين طبقات من السحب الركامية في مقعد لا يمكن لأحد أن يتخيله. المنظر ساحر للغاية، وليس هناك مطبات هوائية تعكّر من صفو الرحلة، ولا أطفال يبكون في الخلف. رحلة صامته لا أعرف وجهتها ولا نهايتها.

أواصل الصعود بخفة نحو طبقات الجو العليا، مارًا بما أظن أنه محطة الفضاء الدولية وبعض الأقمار الصناعية، حتى أصل إلى حافة الغلاف الجوي وأرى استدارة الأرض بوضوح. كروية زرقاء تغلّفها هالة رقيقة كوشاح من نور. أصبح الهواء خفيفًا جدًا بل وشبه معدوم، والسكون يعمّ المكان وكأن الزمن قد توقف. استمر في الصعود وأنا انظر للأرض وهي تتضاءل لتصبح نقطة زرقاء باهتة ثم ما تلبث أن تضمحلّ. حينها يتبدل الفضاء الفسيح حولي وينكمش ليصبح نفقًا طويلًا مظلمًا، يبتلعني بهدوء فأبدأ الهبوط فيه تدريجيًا ثم أجد نفسي ماشيًا على قدميّ بعد أن كنت أسبح في الفضاء. في نهاية النفق يلوحُ نورٌ خافت كشمعة تنادي علي للاقتراب منها، أسير متردّدا نحوه وأنا أشعر بشيء يجذبني اليه. ما الذي يحدث لي؟ هل أنا ميت حقًا، وهل هذي هي روحي التي تسير بعد أن فارقت جسدي؟ ربما أن الأطباء قد أزالوا أجهزة الإنعاش عني بعد أن أقنعوا زوجتي بأن حالتي ميؤوس منها. أم أنني ما زلت أحلم؟ وإن كنت حالمًا، كيف لي أن أعي أنني ما زلت أحلم، بل وأفكر وأنظر إلى نفسي وأراقبها من خارج الحلم؟ ثم ما هو الحلم وما هو الواقع، وكيف يمكنني التمييز بينهما، وأين ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر؟ لو كنت ميتًا بالفعل، فلماذا أجد نفسي هائمًا هنا في هذا العالم العلوي؟ هل ستعود روحي إلى قبري الأرضي الذي لم أره بعد، لأواجه فيه الملاكَين اللذين سيستجوباني كما كنت أعتقد دوما؟ تمرّ كل هذه الأسئلة بسرعة في ذهني، ورغمَ كل ذلك أشعر بنوع عجيب من الطمأنينة وأنا الذي ما كنت اظنّ نفسي متماسكاً هكذا. لعلّ ثقتي بربي وأُنسي به تفوق خوفي منه ومن مصيري المجهول. الشيء الوحيد الذي أعلمه يقينًا هو أنني مستمتع بهذه الرحلة حتى الآن، لكني لا أدرى الى متى ستظل هذه الطمأنينة والسكينة ترافقني، والى أين ستحملني خطاها القادمة؟

أصل إلى نهاية النفق لأخرج منه إلى أرض واسعة على مدّ النظر، تربتها بيضاء مشوبة بحمرة تشبه في لونها تلك التي كان والدي يرعى فيها إبله

حول فيضة «برودان» قرب قريتنا الرغبة. لكن ثمة فرق شاسع، إذ لا حياة تبدو هنا. مجرد أرض جرداء عابسة كئيبة وبلا تضاريس، لا أودية ولا أشجار ولا طيور. سكونٌ ثقيل مزعج يغلّف المكان، تحت قبة سماوية معتمة، تتمازج فيها درجات الرمادي المكفهرّ ببياض باهت. أتابع السير وحدي، ثم أبدأ برؤية أناس آخرين يسيرون حولي، أفواج من الغرباء، عيونهم شاخصة نحو السماء وهم عراة تمامًا، كما ولدتهم أمهاتهم. أدرك فجأة أنني، أنا الآخر، عارٍ مثلهم. ترتفع حرارة المكان ويزداد عدد الناس من حولي، ثم تبدأ الجموع في التدافع، وكأننا في مشهد من أحد أفلام الزومبي التي كنتُ أشاهدها وأنا أتناول الفشار في صالة بيتي مستلقياً على كنبتي المفضلة. تصاعدت رائحة لهب ودخان أمامنا مع رائحة كريهة من الشواء، حلّت محل رائحة الفشار المكرملة. أحسّ برغبة شديدة في الاستفراغ لعلّني أستريح، ولكن لا أستطيع. يحاول البعض الفرار والانسحاب أو التوقف والرجوع للخلف، ولكن حرّاسًا ذوي أجنحة يرفرفون فوقنا وهم حاملون مقامع من حديد، يمنعون كل من يحاول التراجع. ينخسونهم بغلظة ليعيدوهم إلى المسار وكأننا قطيع من أغنام تُساق نحو المسلخ.

يسوقنا الحرس المجنحون بلا هوادة ويدفعوننا لنقترب من بعض، ونتراصّ لنشكّل صفوفًا متفرقة، ثم ما تلبث أن تبدأ في الاقتراب بعضها من بعض، والالتحام حتى تصير صفًا واحدًا طويلًا ينطلق بسرعة صوب اتجاه واحد. يلوح من بعيد شهبٌ من نور، لكنه ليس نورا يبعث على الطمأنينة، بل لهب ناري عرفت طبيعته قبل أن أراه من شدة الحرارة التي لفحتني، والناس حولي في فزع وهول مما هم مقبلون عليه، نظراتهم مذعورة وأجسادهم ترتجف مما هم مقبلون عليه. نتدافعُ في الصف مقتربين من ألسنة اللهب لأرى هاوية تمتد جوانبها يمنة ويسرة إلى ما لا نهاية، وكأنها وادٍ سحيق تضطرب النيران في قاعه وتتلاطم ألسنة اللهب على جنباته. حرارة اللهب تصل حتى أعلى الهاوية لتخنق الأنفاس، وفي

منتصف هذا المشهد المفزع يمتد حبلٌ مشدود مبدأه من جهتنا ولا يُرى طرفه الآخر. يتقدم الصف حتى يصل الناس إلى بداية الحبل المعلّق ليتلقى أولهم نخسة من الحراس المجنحين تأمره بالعبور فوق الصراط الممدود دون أن يمنحوه فرصة للتردد. يعلو الصراخ والعويل فيما يحاول البعض التمسك بمن أمامه أو التشبث بمن خلفه، لكنّ الحراس يفرّقون بيننا ليعبر كل واحد بمفرده، كلٌّ مسؤول عن نفسه، لا رفيق ولا مُعين. تتباين الأحوال على الحبل المشدود. البعض يسير ببطء وحذر ثم ما يلبث أن يتأرجح ويهوي، بينما آخرون يسيرون بثبات وكأنهم تدربوا على ذلك من قبل، وبعضهم ينطلق بسرعة مذهلة كسيارات سباق في حلبة «الفورملا»، وهناك من تطير قدماه عن الصراط وكأنه محمول في الهواء، وآخرون يهوي بهم الحبل منذ أول خطوة.

اقترب دوري ولا مجال للتراجع. خارت قواي وسقط قلبي بين ضلوعي كطائر مذعور في قفص ضيق، واختفى أي شعور بالطمأنينة ظننت أنه رافقني سابقًا. لا ملاذ هنا ولا مهرب، ولا خيار لي سوى أن أقبل بمصيري وأسلّم بقدري المحتوم. حين جاءَ دوري، عضضت ذراعي وصفعت وجهي محاولًا الاستيقاظ من هذا الكابوس المرعب، عسى أن يكون حلمًا مخيفًا. لم تعد ساقاي تقويان على حملي وأوشكت على السقوط إلا أن الحارس دفعني بمقامعه، فانطلقت راكضاً على الحبل بخفة، على غير ما توقعت، كمن يمشي على الجمر في بعض البرامج الوثائقية التي كنت أتابعها. كان الحبل مشدودًا كأوتار العود ودقيقًا كالشعرة، حادًّا كحدّ شفرة الحلاق عبده الذي كنت أحلق عنده قرب بيتنا. لم أكَدْ أحسّ بملمسه، ورغم ذلك، لم أجرؤ على إغماض عيني خشية السقوط. أحاول ان أغمض عيني كي لا أرى ما يوجد في الأسفل من مشهد الجحيم المتأجج لكني أخاف أن أسقط. أركز نظري على الحبل فيما الكلاليب ولهيب النيران الحارقة تحاول أن تنهشني من الجانبين. تقدمت وقطعت مسافة

ليست بالقصيرة، وفي آخر الطريق، بدأت أرى نهاية الحبل تلوح من بعيد كوميض أمل ينتظرني لأصل.

حين اقتربتُ من نهاية الصراط، شعرت بأن قدميّ لم تعودا قادرتين على حملي وبأن قواي تنهار، وبدأت خطواتي تضعف وتتعثر، أترنّح يميناً ويساراً، فيما حرارة اللهب المتصاعدة تلفح ساقيّ كلما أبطأت. أدركت حينها أني هالك لا محالة، وأني سأهوي في سقر. سلّمت أمري لله، مستسلما لقدري بينما من خلفي يركضون بجنون. بعضهم يدوس على كتفي أو رأسي ليتخطوني وكأني عقبة في طريقهم، وآخرون يصطدمون بي فتزلّ أقدامهم ويسقطون خلفي في اللهيب، وهناك من يحاول التشبث بي مادّين أيديهم وهم يستغيثون ليتعلقوا بي. أحاول مساعدة البعض ورفعه ليكمل مسيره حتى إذا وجدت أنه سيجرّني معه الى الهاوية أفلت نفسي وأدفعه بعيداً عني خشية أن يسحبني معه. الحبل يتأرجح وأنا أقاوم من أجل الثبات والجموع خلفي تدفعني بلا رحمة وبعضهم يحاول جرّي معه، فيما دعسات الفائزين منهم وفي نشوة النجاة تضغط على كل شبر في جسمي ليتخطوني وهم يقفزون فوقي ليكملوا دربهم وينهون المسير. من بعيد، وعلى الطرف الآخر من الصراط، لمحتُ امرأة جالسة تحت نخلة مثمرة ذكرتني بالنخلة التي زرعها والدي السارح في حديقة بيتنا، من نوع الدخيني الفاخر، ويحيط بالمرأة مجموعة من الجواري حولها وهنّ ينادينها بالصدّيقة. لم يخطر ببالي حينها أي صدّيقة سوى مريم ابنة عمران، فصرخت مستغيثاً بكل ما تبقى فيّ من رجاء:

«الغوث! الغوث! يا أخت هارون!»

رفعت صوتي بما بقيَ لي من رمق وبأقصى ما استطعت، لعلّ ندائي يبلغها وسط هذا الصراخ والعويل. رأيتها من بعيد تلتفت نحوي وهي تشير لإحدى جواريها لتنظر في أمري. وما هي إلا ثوان، حتى وقفت

جاريتها عند رأسي، تسألني وأنا أترنّح من الإعياء وحرارة اللهب تكاد تسلخ باطن قدمي.

«من أنت يا هذا؟» تسأل بصوت هادئ وحازم.

أجبتها، وأنا ألهث: «أنا ابن السارح. أطلبُ الغوث من سيدتك بحق جاه ابنها النبي!»

سألتني بعد أن رمقتني بنظرة فاحصة: «وماذا فعلتَ في دنياك كي تستحق شفاعتها؟»

تردّدت قليلا، إذ لم يخطر ببالي سوى عملي في الهيئة، فقلت: «أنا من الذين قال الله فيهم: يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

أضافت بنبرة تحقيق: «وماذا كنت تعمل بالضبط؟»

«كنت أراقب الناس. في سلوكهم وهيئتهم ولبسهم وحركاتهم وخاصة النساء. أركض بعصاي خلف الفتيات اللاتي يختلطن مع الرجال أو يبدين شيئاً من شعرهن أو طرفًا من بشرتهن لآمرهن بتغطيته، وألاحق الناس وقت الأذان، أسوقهم لأداء الصلاة في المساجد».

سكتت، ثم أدارت ظهرها وعادت إلى سيدتها. مرت لحظات بدت لي وكأنها دهرٌ كامل، ثم رجعت الجارية وعيناها لا تبشران بخير:

«بئسَ ما صنعت يا هذا. لا تستحق شفاعة سيدتي».

شعرت وكأن الصراط يوشك أن ينهار بي، وأن وسيلتي للنجاة قد تبخرت تحت حرارة اللهب. خطرت ببالي فكرة أخيرة، علّها تكون طوق النجاة. صرخت:

«مهلًا! ليس هذا كل ما كنتُ عليه. بل كان هذا ما يفعله رفقتي، أما أنا، فقد كنت مختلفًا عنهم. لم أكن قاسيًا مع من خالفني لا سيما وأني غير مقتنع بما كنت أعمل، كنت أرى الخوف في عيون الناس، وأرحمهم. أتعاطف مع من يمسكون به، وأخلي سبيله، وأسهّل له العودة إلى بيته.

سترْت من استُضعف، وساعدت من تعثّر، وكم من فتاة سترت عليها وأخليتُ سبيلها دون عتاب، وسهّلتُ لها العودة آمنة الى بيتها، وكم من شاب دللتُه على الطريق الصحيح دون أن أفضحه. أقسم إن قلبي لم يكن فظّا ولا قاسيا».

عادت الجارية مجدّداً إلى سيدتها، ثم رجعت بابتسامة تنير وجهها زافّةً إليّ خبر قبول شفاعة سيدتها البتول.

تغمرني الفرحة وأنا بالكاد أستطيع الوقوف على أطراف أصابعي، فتطلبُ مني الجارية أن ألتصقَ بها من الخلف كي تحملني. رائحة جيدها أزكى من كل عطور الدنيا التي عرفت. أنستني رائحة الشواء الكريهة أسفلَ مني. أمدّ يديّي وهما ترتجفان لأمسك بها فتقع راحتا يديّي على صدرها ويخفّ رجفان يديي ليزداد رجفان قلبي بعد أن أحسست بثدييها النافرين. تنقل يديّ فجأة الى فوق كتفيها لتطير بي عبر الصراط إلى الطرف الآخر، وتنزلني عند قدمي سيدتها البتول. جثوت أمام سيدتها الصدّيقة أقبّل الأرض بين يديها، وقبل أن أقدم شكري، سبقتني بكلماتها: «هنيئًا لك النجاة. امضِ، فقد فُتح لك طريق إلى الجنة».

الأعراف

أكملُ سيري مترنحاً وأنا غير مصدق نجاتي بعد عبور الصراط. أمشي بصعوبة في خطوات متعثرة، وركبتاي ترتجفان من هول ما رأيت، فيما بقايا الحروق تشتعل في باطن قدمي وجوانب ساقي، حيث ما زالت آثار اللهب محفورة كسواد متقرّح شاهدة على ما كان. أصل إلى نفق آخر، يشبه الأول لكنه أقصر منه، ومع ذلك تنتابني قشعريرة غامضة. تبدو هذه الأنفاق ساكنة، وديعة في ظاهرها، لكنني بتّ أعرف أن خلفَ هدوئها مفاجآتٍ تختبئ بانتظار العابرين. أصلُ إلى نهاية النفق لأجد نفسي خارجًا إلى مساحة شاسعة تذكرني بمواقف السيارات في حفلات البوليفارد، حين كنت أعمل سابقًا في تنظيم حركة السيارات أيام كنت موظفًا في هيئة الترفيه، بعد أن تركت عملي في هيئة الأمر بالمعروف التي تم حلها هي الأخرى. المكان مضاء بنور سماوي لا ظل له، على الرغم من أنني لا أرى شمسًا فوقي ولا مصابيح كهربائية حولي. الجو يكتنفه ضباب خفيف ورطب، جميل المنظر لكنه يحدّ من الرؤية، مما يجعلني أشعر وكأنني في مشهد غير مطمئن من أفلام الديستوبيا. تصل إلى مسامعي أصوات وهمهمات قادمة من بعيد. أتقدم نحو مصدر الصوت لأرى طابورًا طويلًا من الرجال والنساء يقفون بلا ملابس وكأنهم في شاطئ للعراة. أنضم إليهم في آخر الصف الذي لا أرى بدايته. يبدو أنني آخر الواصلين.

وجوه الواقفين من حولي تبدوا ضاحكة مستبشرة، لكن في الوقت نفسه تختفي خلف تلك الابتسامات مشاعر مختلطة من الاضطراب والخوف المشوب بالقلق. أفاجأ بأن قدميّ وساقيّ قد برئت تمامًا بمجرد خروجي من النفق، وكأن الألم لم يكن. أحاول الاقتراب من الشخص الذي يقف أمامي لأستفسر عن المكان الذي نحن فيه وإلى أين نحن ذاهبون، لكنّ الطابور يتحرك بسرعة ولا أتمكن من اللحاق به. نصل أخيرًا إلى ما يشبه نقطة تفتيش أو معبر حدودي، كتلك التي نراها عند السفر بين الدول،

حيث يقف المسافرون في طوابير أمام موظفي الجوازات والجمارك بانتظار الإذن بالدخول. تتعالى الأصوات ويتدافع الناس كلما اقتربوا من محطة العبور، كل شخص يريد أن يكون الأول في الدخول. الازدحام يزداد والتدافع يشتد، وكأن الناس تخشى أن تُترك في الخارج دون أن يُسمح لها بالعبور إلى الداخل. لم أتبيّن بعد إلى أين هم عابرون، كما أنني نسيت أن أسأل من يقف أمامي إلى أين نحن ذاهبون.

بدأ الضباب يتلاشى تدريجيا كما لو أنّ ستاراً سماويا يُسدل برفق عن مشهد طال انتظاره. مع انقشاع الضباب تزداد الرؤية وضوحاً وكأن عينيّ تغتسلان بعد طول عتمة لأتبين المنظر المهيب أمامي. سورٌ شاهق عظيم مبني من حجارة متراصة ذات لونين متباينين يخطفان الأبصار. لم أتمكن من التعرف على نوع الحجارة حتى لاحظت فجوة في أحد جوانبه، وكأن أحدهم قد حاول المرور عبرها. هناك بعض العاملين من ذوي الأجنحة يحلقون بخفة وهم يرممون الفتحة ويعملون على إغلاقها دون حاجة الى سقالات تحملهم، مستخدمين لبنات من الذهب يتبعونها بأخرى من الفضة، واحدة تلو الأخرى، في حين بدا أن الملاط بينها يفوح برائحة المسك. حاولت الاقتراب أكثر لكنّ أحد الحراس أوقفني ومنعني من التقدم حتى يحين دوري.

يتحرك الطابور أمامي ببطء مقترباً من بوابة السور. أرى عن بعد بعض الواقفين في الطابور عند نقطة التفتيش يتسلّمون ملابس مزخرفة يغطون بها أجسادهم التي ظلت عارية طوال الرحلة، ثم يُؤذن لهم بالدخول عبر بوابة ضخمة ذات درفتين لا أرى نهايتهما حينما تنفرجان. يصلني صوت الحراس وهم يرحبون بالداخلين قائلين: «سلام عليكم، طبتم، ادخلوها خالدين». تذكرت في تلك اللحظة صوت والد زوجتي وأقاربه، وهم يرحبون بالضيوف في حفل زفافي الذي أقمناه في قريتنا قبل عامين، مستخدمين نفس العبارات، ولكن دون ذكر الخلود، فالضيوف حينها

جاءوا لتناول العشاء والاحتفال المؤقت لفترة قصيرة قبل مغادرتهم. لم يبقَ في الطابور سواي وتلك المرأة الواقفة أمامي وبيننا مسافة من الترقب والتساؤل. ارتفع صوت المرأة وهي تتجادل مع الحارس الذي طلب منها الانتقال إلى مكان آخر خارج السور بعيدا عن نقطة العبور. صوتها يبدو مألوفا لي لكني لم أرَ وجهها، فغادرتْ وهي مستاءة نحو الوجهة التي أشار إليها الحارس، متوعدةً بتقديم شكوى احتجاجًا على ما حدث معها.

حان دوري أخيرًا. تقدمتُ بخطى مترددة حتى وقفت أمام طاولة صغيرة، وخلفها يجلس مخلوق غريب الهيئة، قصير القامة، مستدير الوجه، بخدين ممتلئين وشعر معقود كذيل حصان. رغم مظهره الوديع المهذب إلا أن جسمه ذا العضلات المفتولة يوحي بالقوة، كأنه مدرب في أحد الأندية الرياضية الراقية، أو أحد مصارعي السومو اليابانيين، غير أنه يرتدي بدلة رسمية داكنة أنيقة مثل تلك التي يلبسها كبار الخدم في أفخم فنادق الخمس نجوم. يحيط به حراس من ذوي الأجنحة، مضفين عليه هالة من الهيبة والوقار. اقترب أكثر لأقرأ بطاقة التعريف المثبتة على صدره: «رضوان - رئيس خزنة الجنة».

«هل هذه هي؟» أشرتُ نحو السور قبل أن أكمل سؤالي. ليجيبني بهدوء: «نعم، هي بعينها. جنة الله التي وُعِد بها المتقون».

«أنت، إذن رضوان؟» سألته بتردد.

«نعم أنا هو. ومن تكونُ أنت حتى أتحقق أنك من نزلائنا المدعوين، أصحاب الحظ العظيم؟»

«أنا. أنا ابن السارح»، انطقُ اسمي متلعثما، كطالب يترقب إعلان نجاحه في امتحانات الثانوية العامة.

يطلب مني أن أبسطَ كفي ليمرر عليها جهازًا أشبه بماسح جيني ليتحقق من شخصي، وكأن هويتنا تتجاوز المادة إلى أعماق الأرواح. يُخرج من كُمّ يده جهاز آيباد سماويًا انعكس ضوؤه على غمازتي خديه، وأخذ يهمهم

ببعض الكلمات وهو يمرّر إصبعه على الأسماء، باحثًا عن اسمي. ثم التفت إليّ بعينين تحملان الأسف وهو يقول:

«المعذرة. اسمك غير مُدوّن عندي في قائمة المدعوين الى دار المقامة».

اسودّ العالم في عيني، شعرت بدوار شديد وكدت أسقط مغشيًا عليّ، لولا أن أحد الخزنة أسرع نحوي ليسندني. خرجت كلماتي متعثرة، ترتجف من هول الصدمة:

- «ماذا؟ كيف؟ ولماذا؟»

- «اهدأ قليلاً يا ابن السارح، حتى نرى أين موقعك بالضبط» ردّ علي رضوان بنبرة هادئة.

تملكني الرعب، وأنا أتمتم بصوت مضطرب:

«يا إلهي. هل يمكن أن أكون من أهل النـ.» لكنه قاطعني قبل أن أكمل:

«اطمئن، أهلُ النار لهم طريق آخر. لا يمرّ من هنا، ولا تطأ أقدامهم هذا المكان. عبورك للصراط دليل أنك لست منهم. لكن ومع ذلك لا أستطيع السماح لك بالدخول، فاسمك ليس بين المدعوين».

غرقت في دوامة من التفكير والهواجس، ربما حدث خطأ ما. تذكرت تلك اللحظة الغريبة في المستشفى. حين داست القطة على مخدر المورفين قبل أن تُفصل أجهزة الإنعاش. ربما التبست الأمور على قابض الأرواح، وقد يفسر ذلك عدم مروري على قبري الأرضي وصعودي مباشرة إلى هنا دون أن أرى موضعي هناك.

تساءلت بقلق: «وماذا أفعل الآن؟ وإلى أين أذهب؟»

يفكر رضوان قليلاً قبل أن يجيبني: «لا أعرف مصيرك بعد، لكنه ليس هنا. سأرسلك إلى الأعراف مؤقتاً حتى يُبتّ في أمرك ويُفصل في شأنك».

«الأعراف؟ أليس هو المكان الذي بين بين؟» سألتُ وقد شاب صوتي شيء من التوتر،

«وكم سأبقى هناك؟»

ردّ عليّ مطمئنًا: «يوم أو يومين لا أكثر. لا تقلق، سننادي عليك حالما يصدر القرار بشأنك».

يرافقني أحد الحراس المجنحين إلى ساحة مرتفعة، يحيط بها سور شاهق. أستغرق في التفكير بحالي، مستدركًا أنني على الأقل لستُ من أهل النار. وأيّ مكان بعيد عن الجحيم هو مكان جيد، حتى لو كان الأعراف. ثم أن الأمرَ يوم أو يومان وأعود بعدها إلى الجنة، حيث سألقى نصيبي من الحور العين، أولئك اللواتي طالما شغلنَ مخيّلة العابدين. لأول مرة تخطر على بالي فكرة الحور متذكرًا رائحة وتضاريس جسد الجارية التي حملتني عبر الصراط، هل يا ترى كانت واحدة منهن؟ وهل يمكن أن أراها مرة أخرى أم أن كل حورية تجعلك تنسى الأخرى؟

أحاول أن أستفسر من مرافقي عن موعد معرفتي بمصيري، لكنه يرفض الإجابة، وكأن الأمر محظور عليه. نمرّ عبر بوابة تعلوها لافتة مكتوب عليها «أصحاب الأعراف»، وتحتها بخط أصغر لا يكاد يقرأ: «ما بين وبين» الأحرف مكتوبة بلغة عربية رديئة الخط وكأن من كتبها كان في عجلة من أمره. أدخل لأجدَ أمامي بشرًا عراة من أعراق مختلفة؛ عربًا، أمريكيين، روسًا، هنودًا وغيرهم. بعضهم يبكي، وبعضهم يضحك. هناك من يقف، وهناك من يجلس، وآخرون متعلقون بالسور يطلّون إلى خارجه.

أنظر حولي، لأجد المرأة التي غادرتْ وهي غاضبة ومتوعِّدة بتقديم شكوى. اقتربت منها بحذر، وإذا بها تجفل مني محاولة ستر جسدها العاري بيديها، وقد أمالت رأسها للأسفل في خجل. حدّقتُ في وجهها وأنا غير مصدق، إنها الممثلة التي قامت بدور لارا كرافت في فلم توم رايدر.

«أنتِ. «وقبل أن أكمل قاطعتني:

«أنجلينا جولي. ومن تكون أنت؟»

«أنا ابن السارح. المعذرة لم أقصد التطفّل هكذا ولكنني جديد هنا».

«وما الذي جاء بك إلى هنا؟» تسألني بنبرة فيها مزيج من الفضول والملل.

أجبتها بشيء من الحيرة: «اسمي لم يكن في قائمة المدعوين. تصوّري! رضوان وعدني بأنه سينظر في أمري».

ابتسمت قليلاً وهي تشير إلى من حولها: «كل هؤلاء الذين تراهم هنا مثلك، ينتظرون الإذن بالدخول الى الجنة. إن كان في هذا أي عزاء لك، فلتعتدْ على الانتظار، فالأمرُ قد يطول. واليوم هنا بسنة».

سألتها متعجبًا: «ولكن ما هذا المكان بالضبط؟ وما المقصود ب (ما بين وبين)؟»

ردّت بنبرة جادة: «معظم من تراهم هنا، همْ من تساوت أعمالهم الحسنة مع السيئة، فصاروا معلّقين بين الجنة وبين النار. ينتظرون الفصل النهائي بشأنهم».

رفعت حاجبيَّ: «إذن، أنتِ أيضًا ما بين وبين».

ابتسمت بخفة وأجابت: «لا. ليس الجميع هنا متساوين. البعض، مثل حالتي، ثقلت موازينهم بالأعمال الصالحة واستحقوا الجنة، ولكن لديهم بعض 'الإشكالات'«.

«إشكالات؟» سألتها باستغراب.

«يمكنك القول إنها أمور قانونية.» قالتها بنبرة غامضة جعلت الدهشة ترتسم على وجهي.

استغربت أكثر: «قانونية؟ ماذا تعنين بالضبط؟»

أجابتني بنبرة أكثر عمقًا: «أمورٌ تتعلق بإتمام العقد».

أصبحت في حيرة تامة: «عقد؟! أيّ عقد هذا الذي تتحدثين عنه؟»

أجابتني بهدوء: «الوعد الذي قطعه الله لعباده الصالحين بدخول جنته، والمساكن الطيبة. ذلك هو الفوز العظيم».

شعرت بفضول شديد وطلبت منها المزيد من التوضيح: «هل لكِ أن توضحي أكثر؟»

قالت وهي تستعد لشرح موقفها: «خذ حالتي مثلاً. حين جاء دوري، وقفتُ أمام البوابة ورفضتُ دخول الجنة إلا بشرط».

«شرط؟!» قاطعتها مندهشًا.

«أيعقلُ أن تشترطين قبل دخول الجنة؟ وهل أنت أصلاً في موقع من يشترط، ولماذا؟ أليس فيها كل ما تتمنين، أليست هي غاية الغايات ومنتهى الأمنيات؟»

ردت وهي تهز رأسها بهدوء: «تقريبًا. لكنْ ليسَ تمامًا كما تظن».

«كيف ذلك؟» سألتها وقد زاد فضولي.

أجابتني بشيء من الحزن: «أنا اشترطت أن أعرف مصير أمي. لم أرها معي في الطابور. قلبي يرتجف كلما فكرت أين يمكن أن تكون، وأخشى ما أخشاه أن يكون مصيرها في الجحيم. لن أدخلَ الجنة قبل أن أطمئن عليها وأتأكد أنها معي».

«ولكنكِ، أيتها المحظوظة، من أهل الجنة، فما الذي تريدينه أكثر من ذلك؟ ستقضين وقتك تتقلبين في أحضان من تشتهين، تستمتعين بألذّ اللحظات».

«أريد نعيماً تاماً لا شائبة فيه ولا نقصان. بالله عليك، أخبرني كيف لي أن أهنأ وأن أستمتع بقطرة من النعيم وأنا لا أعلمُ مصير أمي؟»

قالتها ووجهها يشتعل بألم دفين.

«كيفَ يمكن أن يطيب لي العيش هنا وأنا التي كنت أجد طعم الآيس كريم الذي أحبه غير مستساغٍ، في ذلك اليوم الذي تكون فيه أمي مريضة؟ هذا خرق للوعد الذي حصلت عليه في دنياي، الوعد بالمقام الطيب. كيف

أستطيع تصور نفسي في أماكن طيبة وأسمح لنفسي بالخلود في الرضا بينما أمي -والعياذ بالله- قد تصطلي في أتون السعير، معاذ الله!»

قلت لها بتردد، محاولًا التخفيف من وطأة حزنها:

«ولكنك لا تعرفين يقيناً أين هي. لمَ لا تدخلين الجنة وترين؟ قد تجدينها في انتظارك. ربما سبقتك إلى هناك؟»

هزت رأسها بإصرار لا يقبل المساومة:

«لا. شرطي واضح. لن أخطو نحو النعيم حتى أعلم موضع أمي. إن لم تكن معي. فلن أكون».

تريّثت لحظة، ثم سألتها، بخجلٍ لا يخلو من الفضول:

«وماذا عن والدك؟ هل اشترطتِ معرفة مصيره أيضًا؟»

أجابت بصراحة مؤلمة:

«لم أفعل، لأني وبكل صدق لا أعرفه أصلًا. لم يكن له مكان في حياتي أو حضور. لم يعنِ لي شيئًا. أما أمي فهي كل شيء. عشت معها وأحبتني وأحببتها وهي أغلى عندي من كل شيء».

صمتّ قليلًا، ثم سألتها بسؤال لا يخلو من الحذر:

«حسنًا، واعذريني على سؤالي هذا، لكن ماذا لو أخبروك أن أمك في النار؟»

«حينها، سأفعل كما فعلت جارتنا التي تقف هناك» وأشارت بإصبعها إلى امرأة عيونها محمرة من طول البكاء، تقف داخل الأعراف ناحية السور، كانت قد تساوت حسناتها وسيئاتها، فمكثت زمنًا ثم صدر القرار بإدخالها الجنة، لكنها حين أطلّت من فوق السور، ورأت ابنها في الجحيم رفضت الدخول. حاولوا إقناعها بالدخول، لكنها رفضت بشدة. جرّوها نحو الجنة جرّاً وهي تصرخ وتبكي متشبثة بسور الأعراف، رافضة الدخول. تركوها هنا، بين بين، حتى يجدوا لها حلاً».

نظرتُ إلى أنجلينا، كأنّي وجدت فجأة حلاً سحريا لمأساة المسكينة:

«ولكن لمَ لا يُنسيها ربنا ابنها؟ يمحو صورته من ذاكرتها، لتهنأ وتستريح وتقبل بنصيبها في الجنة بلا وجع راس؟»

«أرجوك، لا تخبريني أن لدينا معضلة قانونية أخرى!»

«أترى ذلك المبنى عند بوابة الأعراف؟» قالت وهي تشير بيدها إلى بناء صغير تلمع قبته بلون اللؤلؤ.

«إنه مكتب خاص بالشكاوى، وُضع خصيصًا لأولئك الذين استحقوا الجنة لكنهم رفضوا دخولها حتى تُلبّى طلباتهم. يعمل فيه فريق من المحامين المختصين ذوي الأجنحة للنظر في الدعاوى المقدمة ممن هم على شاكلتي».

«أما عن حلك الذي اقترحته لمحو الذاكرة، فقد عرضوه عليها بالفعل لكنها رفضته لأنها حينئذ ستصبح إنسانا آخر حسب كلامها. قالت إنهم لو محوا ذكرى ابنها من عقلها، فلن تبقى هي ذاتها وستصبح انسانًا آخرَ، لا تشبه من كانت، تلك التي عاشت حياتها الدنيا وحملت ملامح حزنها ونكهة حبها، فهي لن تكونَ «هي» حسب تعبيرها. وإن لم تكن «هي» فما معنى أن تُمنح الجنة؟ كيف تفرح بجائزة لا تدرك على ماذا مُنحت؟ وتصبح مكافأتها حينئذ بنعيم الجنة لا معنى له لأنها لا تدري على ماذا تُكافأ. أليس هذا كما لو أن شخصًا اجتهد في دراسة امتحان، وأمضى لياليه في التحضير، ثم اجتازه بتفوق. وفي يوم التكريم وتسليم المكافأة يستيقظ وقد نسي ما مضى ولا يذكر شيئا عن الاختبار ولا عن تعبه في اجتيازه وجدّه وتحصيله، كيف يمكن لهذه المكافأة أن تحمل أي معنى إذا نُسيت التجربة التي سبقتها ومن أجلها منحت المكافأة؟»

تأملتُ حديثها، وقلت بدهشة لم أستطع إخفاءها:

«ونفس الشي يمكن قوله بالنسبة للعقاب. ولكن كيف عرفتِ كل هذا وأنت قد وصلتِ للتو؟»

ابتسمت بتنهيدة عميقة وقالت: «لعلك ظننت أنني حديثة عهد هنا لمجرد أن رأيتني في طابور الانتظار. أنا أقف على عتبة الأعراف منذ عامين كاملين، أزور مكتب رضوان بانتظام بحثًا عن جواب لمصير أمي، ولم أفلح حتى الآن».

تركتُ أنجلينا التي علّقت دخولها إلى الجنة بمعرفة مصير أمها، وانطلقت لأتجوّل في أرجاء الأعراف، المكان المعلق بين الوعد والانتظار. نصيحتها الأخيرة ترنّ في أذني: «إياك أن تصعد إلى السور.» كلمات تحذيرها تلك زرعت في قلبي توترًا غريبًا، وجعلتني أشعر بألم مفاجئ في بطني، خوفًا من أن أطلّ من هناك وأرى أحداً أعرفه من الأحباب في الهاوية.

تابعت طريقي على أرض طينية ناعمة تفوح منها رائحة عطرية قوية لم ترق لي. تابعت السير حتى وصلت إلى ضفة نهر يسمونه هنا بـ «الحياة»، وعلى جانبيه يقف رجال ونساء. شاهدت بعضهم ينزلون إلى النهر ليسبحوا فيه لحظات ثم يبادر الحراس المجنحون بالتقاطهم من الماء وحملهم وهم يهتفون: «تمنّوا ما شئتم!»

ألتفتُ الى الجالس بقربي لأسأله «الى أين يأخذونهم؟» فيجيبني بهدوء «إنهم ذاهبون بهم الى الجنة».

لم أستطع أن أقاوم فضولي، فبدأت حديثاً معه لأعرف قصته.

«من تكون، أيها الرجل؟»

«أنا علي البخيتي».

توقفتُ للحظة، أستحضر الاسم في ذاكرتي، ثم قلت: «الاسم ليس بغريب عليّ».

ابتسم، وقال: «ربما سمعتَ بي عبر مواقع التواصل الاجتماعي في الدنيا الفانية».

تأملتُه بعينٍ فاحصة، قبل أن أقول: «آه، أنت من أولئك الذين أنكروا تواصل الإله مع البشر. كيف ترى الأمر الآن، أليس ما كنتَ تقوله في الدنيا باطلا وخصومك على حق؟»

هزّ رأسه برفق، وقال بنبرة تأملية: «بالعكس تمامًا. لو كان زعمهم صحيحًا عن ما قالوه لنا، لكنتُ الآن في النار وفقًا لمعتقدهم الذي كنت كافرا به. لكني، كما ترى، هنا بين بين، في الأعراف. أليس هذا دليلاً على بطلان أقوالهم؟»

نظرتُ إليه بحيرة: «لكن ألم تكن تنكر وجود الله؟»

قال بثقة امتزجت بالحياد: «كنت أنكر إلههم الذي صنعوه وصوّروه لنا في أذهانهم وفقًا لعقائدهم البشرية. ذاك الذي يمارس العقاب والثواب حسب أهوائهم، لكني كنتُ دائمًا أميل إلى وجود قوى غيبية لا أدرك كنهها. ولنكن واقعيين، فحتى الآن ونحن هنا لا نعلم حقا من هي».

«ولكن، وكما أذكر، عملتَ في السياسة ومارستَ التغيّر في المواقف والمراوغة حسب الظروف».

ضحك بهدوء وقال:

«صحيح، ربما كنت براغماتياً لكني لم أكن منافقا كغيري عندما يصل الأمر الى الاعتقاد القلبي فلن أقبل أن أرثَ أفكار غيري دون مراجعة ولن أقبل بأي تصور غيبي يعرضه أحدهم دون أن أتفحص الدليل، وربما كافأني الإله لأني لم أداهنه. هم وضعوني في النار حسب مخيلتهم، لكن الإله وضعني حيثما شاء».

قلتُ، وكأنما أحاول تحدّي منطقه: «لكن تصورهم عن الدار الباقية، عن الجنة والنار، يبدو صحيحًا إلى حد كبير، كما ترى الآن».

رد بابتسامة غامضة: «ها أنت تستدرك على نفسك بقولك «إلى حد كبير». وكأنك لاحظتَ اشياء لم تتطابق تماما مع ما قيل لك وأولهم موضعي هنا.

ومع ذلك فالأمر يا عزيزي في النهاية كله بيد الله، لا بأيدي الناس كما كانوا يظنون ويدّعون. موازين الله في مآلات الخلق هي غير موازين البشر».

شعرت بالحيرة أمام هذا الرجل كما لو أنه يعيد رسم الخرائط التي ظننتها ثابتة، ففضّلت العودة الى استفساري الأول، عن نهر الحياة مُشيراً الى الذين يسبحون.

«لمَ لا تنزل معهم إلى النهر، ليطير بك الحرس المجنحون إلى الجنة، بدلًا من جلوسك هنا على الشط؟» سألته مستغربًا.

أجابني بنبرة هادئة ولكن قاطعة: «لا أريد العودة إلى هناك».

دهشتُ وسألته: «وهل كنت هناك من قبل؟»

أومأ برأسه وقال: «نعم، أنا أحد الذين هربوا من الجنة عبر النقب الذي فتحناه في السور قبل يومين» وأشار بيده إلى مجموعة تجلس بعيدا على الشط بنظرات شاردة وملابس تلمع ببقايا من نور لا يزال عالقا بأكتافهم.

في تلك اللحظة، تذكرت الفتحة التي رأيتها في جدار الجنة عندما كنت أنتظر في الطابور قبل أن أحضر إلى هنا. أخيرًا وجدت شخصًا دخل الجنة، وجرّب نعيمها وذاق حلاوتها دون قيد أو شرط.

يكمل حديثه «شكّلنا عصبة من الثائرين. للهروب من الجنة».

توقفتُ قليلا، قبل أن أسأل بفضول لا يخلو من ريبة: «ومن هم أفراد هذه العصبة؟»

ابتسم وكأنما يستمتع بإثارة دهشتي، ثم قال: «عبد الله القصيمي، فرج فودة، طه حسين، وشريف جابر. ومع الوقت، التحق بنا آخرون. قسّمنا العمل بيننا بحذر ودقة؛ شريف تولى مراقبة الجدار واختيار نقطة الهروب، وطه حسين يلهي الحراس ببلاغته، ينسج لهم حديثا لا يُمل

بصوته الشجي. أما القصيمي وفرج، فقد كانا الأكثر جرأة. هما من أزالا الطوب الذهبي بأيديهما».

«وماذا عنك؟ ما دورك في هذا المخطط الجريء؟»

ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة، وقال بهدوء وكأنه يروي نكتة لا يحسنها سواه:

«أنا؟ أنا كنت أحضّر لهم الشراب».

لم أستطع كبح تساؤلاتي:

«ولكن لماذا هربتَ أصلا؟ أيعقل أن يهرب أحد من الجنة بعد أن دخلها؟ وهل هي سجن حتى تهرب منها؟»

تنهّد وأطلق زفرة طويلة من صدره وقال: «بالنسبة لي، هي أبشع السجون».

«يا رجل! ما هذا الكلام؟ قل غير هذا!» رددت بذهول.

هز كتفيه بلا اكتراث وأجاب: «ليس عندي غير ما قلت».

حاولت أن أذكّره بما سمعته طوال حياتي: «ألم تسمع عن أن أتعس إنسان في الدنيا يُغمس في الجنة غمسة واحدة، ثم يُسأل: هل رأيت بؤسًا قط؟ فيقول: لا».

ابتسم بحزن وقال: «بل قرأت وسمعت، وليس من سمع كمن رأى وجرّب وذاق».

ألححت عليه، وقلت: «كيف؟ بالله عليك أخبرني، لكن قبل ذلك، كم قضيت هناك؟»

«بقيت سنتين.» أجاب بهدوء.

«حسنًا، ثم ماذا؟ ما الذي وجدت؟ وما الذي دعاك للهرب؟» سألته بفضول مشوب بالدهشة.

قال: «وجدت كل ما وُعِدنا به حقًا. كلّ ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين. موائد من الطعام لا تنتهي، أنهار من العسل واللبن والخمور والحور العين. والأخيرتان بالذات، الخمر والحور، لهما وقع خاص على نفسي، نعم، كل هذا وأكثر موجود ولا شك. متع حسّية بلا حدود. ولكن».

قاطعته بنفاد صبر: «ولكن ماذا؟»

تنهد وقال: «بعد شهور من الاستغراق في تلك المتع، من ممارسة الجنس المتواصل مع الحور العين بكل أشكاله، فرادى وجماعات، وتناول ما لذّ وطاب من الطعام ومعاقرة الخمر، شعرت وكأنني في خمّارة أو بيت دعارة، أو كأنني أعيش في حفلة صاخبة لا تنتهي، حفلة سُكر وعربدة في أحد المواخير المترفة الذي لا تنطفئ أنواره. لم أعد أرغبُ في صفّ من الحوريات مُستلقيات على الأرائك ينتظرن دورهن لأمارس الجنس مع كل واحدة منهن، بل اشتقتُ لشيء مختلف. اشتقت لقصة حب عفوية ورومانسية أعيشها مع امرأة واحدة، عادية الملامح، متوسطة الجمال، لا تخلو من العيوب والنقص. أريد تلك اللحظات التي تكون فيها العلاقة معقدة وغير مضمونة النتائج، حيث التمنع والمراوغة، تتمنّع وتتهرب مني وقد تفشل وقد تنجح. اشتقت لتطبيقات المواعدة والشات، ثم السلام والكلام والمحادثات التي تبدأ بخجل وتردّد ثم تتطور ببطء. اشتقت إلى لهفة اللقاء، وحتى لوعة الفراق والهجر. أريد قصة حب حقيقية، مع إنسانة حقيقية، وليس مجرد قضاء شهوة مع كائنات مثل الدمى الجنسية أبدّل واحدة بأخرى. لذة الحب تكمن في القليل. في الترقّب، في الشوق واللهفة، وفي القلوب التي قد تلتمّ وقد تنكسر».

سكت لحظة ثم تابع:

«حتى الطعام لم يعد يغريني، لقد سئمت من أنهار العسل. تخيّل أن تسبح في نهرٍ من عسل ثقيل الحركة، بطيء الجريان، لزج يلتصق بجسدك، وأنت تحاول عبثًا التخلص منه. ما الفائدة من هذه الأنهار اللزجة بينما

يكفيني «برطمانات» مصفوفة بشكل نظيف ومرتب على الأرفف؟ ثم ما المتعة في أن تنظر الى الطير فيسقط بين يديك مشوياً أو تدنو منك الشجرة لتتدلى الفاكهة فوق رأسك وكل ما عليك فعله هو أن تمد يدك لتقطفها وأنت مستلقٍ على قفاك؟ أريد أن أتسلق شجرة، أن أمدّ يدي الى غصن مرتفع كما كنت أفعل في دنياي الفانية لأقطف الثمرة، محاذرًا من الأشواك، وربما أقع وأجرح قدمي. أريد أن أذوق الجوع لأستمتع بلذة الشبع، وأن أختبر العطش لأشعر بلذة الارتواء، أريد أن أكتوي بحرّ الشمس حتى أستطعم برودة الظل، وأن أتجمد قليلاً في البرد لأحس بلذة الدفء. أحتاج شيئاً من الألم، ولو يسيراً، كي أستعيد إحساسي بنعمة العافية. هذا هو ما أفتقده حقًا واشتاق اليه من حياتي الفانية».

يكمل حديثه وأنا مستمع باهتمام:

«أنظر إلى عبد الله القصيمي الجالس هناك بالقرب منا. لم ينخرطْ في الملذات كما فعلتُ أنا بل ظل على حاله. فكرة أن تكون المكافأة في الجنة هي بالانغماس في المتع الحسية حتى الثمالة كانت كافية لتصيبه بالقرف، ولا ألومه الآن. رغم أنني كنت أختلف معه عندما دخلت لأول مرة ووقعت عيناي على نساء الجنة وانبهرت بجمالهن بينما لم يُخفِ هو اشمئزازه. لم يستسغ صاحبنا أن يكافئنا ربنا بفتيات ويقدّمهن هدايا لنا، مثل الدمى أو الألعاب الجنسية؛ فتيات بأثداء ممتلئة، كواعب أترابا، وكأن رضوان هو سمسار يوزع البغايا. ثم إن الانغماس بشراهة في الملذات الحسية هو أمر تأنفه الطباع السليمة في دنيانا الفانية بل وتحرّم بعضه الشرائع، ويعيبه أولو العقل والنهى ويحذّر الأطباء من عواقبه. فكيف يصبح كل ذلك حلالًا زلالًا هنا؟ بل وقبل ذلك كله كيف يصبح مكافأة ومثوبة للفائزين؟ ثم ماذا عن المتع الروحية والفكرية التي تريح الذهن وتدعو للتأمل؟ وأين بقية الفنون الراقية كالموسيقى والمسرح والشعر والسينما؟ وماذا عن لذة التنافس وكرامة العطاء والبذل وخدمة الآخرين

والشعور بالإنجاز؟ كيف يختزل النعيم في الطعام والجنس، وهما من أدنى الشهوات في الدنيا الفانية، لترقى هنا وتصبح العطاء اللامحدود؟»

سألته وأنا أشير إلى رجل يدور حول نفسه بلا توقف: «وماذا عن ذاك الرجل الذي لا يتوقف عن الدوران حول نفسه والرقص باستمرار؟»

أجابني بابتسامة خفيفة: «آه، ذاك شريف جابر. هرب معنا من الجنة بعد ان خنقته الرتابة وأفتقد ممارسة هواياته القديمة في نحت التماثيل وتصوير الفيديوهات وصنع الأفلام، أو سماع أغاني مايكل جاكسون، أو مشاهدة الأفلام في السينما، وحضور مباريات الدوري التي كان يتابعها بشغف. حتى طلبه لتأسيس مكتبة للقراءة، أو تصفح الإنترنت، أو مشاهدة نت فلكس، أو الوصول لقنواته المفضلة على اليوتيوب لم يلقَ استجابة فأخذ يرقص لأن لا شيء آخر يفعله».

«لكن الأعجب من بيننا جميعاً هو ذاك الرجل الجالس هناك وحيدًا، رأسه مطرق بين يديه، ولا يتحدث مع أحد. شاركَنا الهروب من الجنة، ولم نعرف من يكون اذ لم يكن يشاركنا الآراء ولا الاعتراضات وكأنه هارب بصمته لا بجسده، حتى اكتشفنا أنه أقدمنا إقامة هناك. قضى ألف سنة في الجنة أو يزيد، بينما أقدم واحد منا لم يتجاوز بضع سنوات».

«يا إلهي، ألف سنة! عمرٌ شاقٌ طويل! لكن لماذا هرب؟ وما مشكلته؟»

«مشكلته معقدة عويصة، ولا أظنّ أنّ لها حلًا. ألا تعرف من يكون؟»

«لا، ولكنك قد أثرت فضولي!»

«إنه أبو العلاء المعري، صاحب البيت الشهير: تعبٌ كلها الحياة فما أعجبُ إلا من راغبٍ في ازدياد».

«وما الذي أودى به الى هنا؟»

يكمل البخيتي حديثه وهو يرمق المعري بنظرة شفقة:

«أصابه الملل. ذاك العدو الصامت والأبشع من كل عذاب، وهل هناك أسوأ من الملل؟ عبّ من متع الجنة حتى ملّ وسئم منها. يقول إنه يشتهي الموت، أو على الأقل أن ينام وينطفئ وعيه ولو مؤقتًا، لا يريد لوعيه أن يبقى. يريده أن ينطفئ، يريد أن يموتَ لكي يكون إنسانا كما كان، لكنّ ذلك مستحيل. لقد رأى بعينيه ذبح ثور الموت ككبش أملح أمامه. فكرة الخلود الأبدي باتت تطارده، وتخيفه أكثر من العدم والفناء. كان يحدثنا أنه في حياته الفانية عاش قرابة ثمانين عامًا حاملاً رأسه فوق كتفيه، وقد تعبَ من الاستيقاظ كل يوم حتى أصابه الملل. وها هو الآن يعيش آلاف السنين، وأمامه ملايين، بل وربما مليارات من الأعوام، مستيقظًا وواعيًا في حالة من الإدراك الكامل طوال الوقت في جنة لا نهاية لها. يتشابك الزمن حتى تتلاشى حدوده، فلا ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل إن غابت النهاية. فالمعنى في نظره يسكن في النُّدرة لا في الوفرة، في القِصَر لا في الامتداد، في المؤقّت لا في الأبدي، في الطارئ لا في المستقر، في الزوال لا في الدوام».

سكت قليلاً، ثم أردف بصوت متهدّج:

«بات يؤمن بوجود حياة ثالثة أخرى غير ما نحن فيه. قلنا له إن اعتقادك هذا محض خرافة ليجيبنا بأنه لولا الخرافة لأصيب العقل بالجنون من فرط هول الواقع المستدام. تخيّل أن تعيش ألف سنة مستيقظًا، بلا نوم ولا غياب ذهن، ولا لحظة نسيان ولا حتى سكر وذهاب عقل. استبدّ به الملل والضجر والسأم، حتى بات يتمنّى الجنون وفقدان عقله اذ لا يستطيع أن ينهي حياته، فالخلود عنده لعنة وليس هبة. يرى أننا واهمون ولم نعد أناساً إذ أن وعينا بفنائنا هو الذي يجعل منا بشرًا. كان في دنياه الفانية رهين المحبسين أو الثلاثة كما قال، فقدُ نظره ولزومُ بيته واحتباسه داخل جسده، وكلها هيّنة امام سجنٍ أعظم هنا وهو سجن الخلود الأزلي الدائم والوعي المستمر القائم. طلبَ من خزنة الجنة أن ينقلوه إلى النار ليجرّبها، لعل

لهيب النيران وتغيير الحال يعيد إليه توازنه، لكنهم رفضوا. فهو من أهل الجنة، وهرب معنا بحثًا عن طريق إلى النار، لكن انتهى به المطاف هنا في الأعراف.

أصبح عنده النعيم والعذاب سواء، مثلما يصير طعم الآيس كريم اللذيذ وألم الأسنان متساويين إن طالت المدة. الفارق بينهما واضح في الدقيقة الأولى والساعة الأولى، وفي اليوم الأول، والسنة الأولى، ولكن بعد عشرين سنة أو خمسين أو ألف سنة، يصبح الألم مثل اللذة كدالتين رياضيتين يقتربان بعضهما من بعض عندما يطول متغير الزمن. في الخلود، يتساوى المدلّل مع المحروم، ومن في النعيم مع من في الجحيم».

أفارق صاحبي وأنا متعجب من حديثه، وقد علقَ صدى كلماته في رأسي، وأمضي في أرض الأعراف متجهًا نحو «مكتب الشكاوى»، حيث تمتد أمامي طوابير طويلة، وكل طابور ينتمي إلى فئة معينة من الشكاوى. لفت نظري طابور أطول من البقية، فاقتربت منه بدافع الفضول وسألت أحد الواقفين فيه عن فئته ليجيبني بأن هذا هو طابور «العدالة». أخبرني بأن معظم الذين يقفون هنا يشكون من أن العدالة، ولو أنها تحققت في النهاية، إلا أنها جاءت متأخرة كثيرا بالنسبة لهم والعدالة المؤجلة، في نظرهم، هي عدالة منقوصة بينما الله أكمل وأعدل من ذلك. هم لا يشككون في تحقّق العدالة بذاتها بل في توقيت تحققها.

قالها بمرارة:

«تحققت، نعم. لكن بعد ماذا؟ بعد أن انتهى كل شيء. تأخّرَتْ كثيرًا. والعدالة المتأخرة، في نظرنا نحن المتظلمين هنا، ليست عدالة كاملة. نحن لا نشك في عدل الله، بل نُناشد كماله، ونقارن بين وعده، وبين ما عشناه من صبر وقهر وانتظار».

أشار إلى قصته قائلاً: «لقد سُجنت ظلمًا بسبب وشاية كاذبة وضاع شبابي خلف القضبان، ولم أجد عزاءً إلا في احتساب أجري في الحياة الآخرة.

كنت أشعر بالقهر كمظلوم وأبتلع الألم على أمل أن يُردّ إليّ حقي في الآخرة، لكن صدّقني. كان يؤلمني أن أرى من ظلمني يتنعم بالحرية، يضحك في الأسواق، بينما أنا أتآكل من الداخل. أيعقل أن تكون بعض محاكمنا الأرضية أسرع في تحقيق العدالة من ميزان السماء؟»

ثم أومأ برأسه إلى فتاة واقفة أمامه:

«أنظر إلى هذه الفتاة المسكينة، تعرضت للاغتصاب في صغرها، وعاشت بقية حياتها محطمة ومحملة بالخزي والعار، بينما ظل مغتصبها يتجول بحرية في الأسواق. هناك من اقتصّت لهن المحاكم في الحياة الدنيا بسرعة، بينما ظلت هي تعاني. كثيرون هنا عاشوا وماتوا وهم يرون الظلم يتكرر أمامهم دون أن يُقتصّ لهم، ولا يجدون عزاء سوى وعدٍ مُؤجلٍ بالعدالة في الآخرة».

قلت محاولًا التخفيف عنه، وإن لم أكن واثقًا من كلامي:

«لكن. ألن تكون مكافأتهم هنا أعظم؟ أجورهم مضاعفة لتعوّضهم عن الظلم الذي لحق بهم، بخلاف من لم يمرّ بما مرّوا به من معاناة وظلم».

رفع حاجبيه ساخرًا وهو يقول:

«مضاعفة. مضاعفة بماذا؟ لعلك تقصد زيادة في عدد الحور، أم ربما أنواعاً فاخرة من كؤوس الخمر، أو زيادة في مساحة العقار، أو لعلها نهراً إضافيًا من العسل واللبن!؟»

لم أجد رداً، إذ يكفي طول الطوابير الواقفة، فانسحبت بهدوء وأنا أحدث نفسي: «عجباً لهؤلاء الهاربين من الجنة، فكأن «لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» لم يكن كافيًا لهم. البعض منهم يضع شروطًا قبل أن يدخل الجنة، وآخرون يريدون العودة إلى حياتهم العادية ولو خالطتها بعض الآلام لكنها واقعية، بعدما سئموا من حياة الفانتازيا الخيالية التي تحيط بهم، وكأنهم يعيشون في فيلم رسوم متحركة، حيث لا يصاب الشخص ولو سقط من أعلى جبل. وهناك من أصابه الملل

والضجر والرعب من فكرة الخلود في النعيم، من أن تدوم اللذة حتى تفقد معناها، فيطلبون الانتقال الى النار، لا فرارًا الى العذاب، بل هربًا من الرتابة أو يطلبون الموت، الموت فقط وبسلام، وكأنّ الفناء صار هو النعمة المنتظرة. والبعض الآخر لم يعجبه بطء العدالة في أخذ مجراها، وفي النهاية، لم يجد كل هؤلاء ملجأ لهم سوى الأعراف، ذلك المكان الذي يبقى فيه من لا ملاذ له، لا يُطمئن ولا يُدين، لا يُنجي ولا يُهلك. دون مصير واضح حتى يحكم الله بأمره».

تنحّيت عن الزحام جانبًا لينتهي بي المطاف في طابور آخر، وإذ بي أرى رجلاً واقفا وحوله آخرين ملتمّين عليه، يتحدث إليهم ببلاغة وثقة كأنما يخطب فيهم، وتنساب من وجهه ابتسامة هادئة، تبعث في النفس سحرًا دافئًا، تأسر القلوب. تملكني إحساس غريب بأني أعرف هذا الصوت، لكنني لم أتبيّن وجهه من بين الحشود. وما إن انتهى من حديثه وانصرف من حوله الناس، دفعني الفضول إلى الاقتراب منه وتحيته.

«وجهك يبدو مألوفًا، من تكون؟»

ابتسم بهدوء وقال: «أنا مانديلا».

بدهشة، سألته: «مانديلا؟ نيلسون مانديلا. الناشط المناهض للفصل العنصري ورئيس جنوب أفريقيا؟»

ضحك ضحكة خفيفة قائلاً: «نعم، هو أنا».

أخذتني الدهشة مجددًا، وقلت: «عذرًا، لكن الصور التي عهدناك بها كانت لرجل مسن، لم أتخيلك شابًا بهذه النضارة!»

ابتسم وقال بخفة روح: «لا بأس، العودة شاباً نعمة لا يشكو منها أحد».

أمعنت النظر في وجهه وفي ابتسامته وقلت: «عرفتك من نبرة صوتك الهادئ وأسلوبك المميز في الحديث، بل ومن ابتسامتك الوديعة وعيونك الثاقبة التي تحمل تاريخًا من الصبر والنضال».

أومأ برأسه وقال: «بعض الأشياء لا تغيرها السنين ولا يُبهتها الخلود».

«لكن ماذا تفعل هنا في الأعراف؟»

أجاب مبتسمًا: «لقد أكرمني الله بالعبور إلى الجنة، لكنني كغيري من الواقفين هنا، وضعت شرطًا لدخولها».

ضحكت وقلت بصوت متردد:

«حتى أنت؟ يبدو أن وضع الشروط قبل دخول الجنة صار موضة هنا! وما كان شرطك يا سيد مانديلا؟»

نظر إليّ بنظرة متأنية، ثم قال بصوت هادئ:

«قلت إنك عرفتني من صوتي، ومن ابتسامتي، ومن عينيّ. لكن هناك شيئًا لم تلاحظه».

سألته مستغربًا: «ماذا تقصد؟»

أجاب: «لون بشرتي. ألم تلاحظ شيئًا؟»

نظرت إليه بتمعن، ثم اتسعت عيناي دهشة: «آه، تقصد أنها أصبحت بيضاء؟!»

«نعم. اشترطت أن أدخل الجنة أسودَ كما كنت ورفضتُ أن أدخل الجنة بهذا اللون. عشتُ طيلة حياتي مناضلا من أجل الحصول على حقوقنا كذوي بشرة سوداء في نظام عنصري بغيض، يرفع من قيمة اصحاب البشرة البيضاء فقط للون بشرتهم. وأنا الآن أجد نفسي في مجتمع كله من ذوي البشرة البيضاء! تصوّر أن السجّان الذي أمضيت ربع قرن من حياتي في زنزانته، وقاومت نظامه، كان يقف معي في الطابور لدخول الجنة، وحين شاهدني وأنا بنفس لون بشرته البيضاء ضحك علي ساخراً وكأنه يقول إن نضالك كله كان بلا معنى في النهاية».

سكتَ لحظة، ثم أضاف بنبرة حزينة:

«أريد أن أدخل الجنة بلون بشرتي السوداء التي ولدت بها وناضلت من أجل عدم تفضيل لون على آخر. لا ببياض فُرض عليّ مع الخلود. فكرامتي، كما كانت في الدنيا، لا تُشترى. حتى بالنعيم الأبدي، والا سأبقى حبيسا هنا في الأعراف كما كنت حبيسا في الدنيا الفانية».

ودّعته وأنا أرثي لحاله، مستشعرًا أن نضاله لم ينتهِ بعد، بل امتدّ من دنيا الفناء إلى دار البقاء، حيث يمضي إلى مكتب الشكاوى بتظلمه، عسى أن ينجح في مسعاه. وفيما كنت أحاول الخروج من تلك الطوابير الطويلة، لفتَ انتباهي صبيّ صغير بدا لي فتيّ العمر، فاقتربت منه لأسأله:

«أأنت هنا أيضًا من أجل العدالة المؤجلة؟»

أجابني: «ليس تمامًا».

«إذن، ما شكواك؟»

قال: «أبي في الجنة، لكني اكتشفتُ أن أخي في النار بعدما أطلت النظر من فوق سور الأعراف».

«لعلك تشترط دخول أخيك الجنة إذن؟»

«أتمنى ذلك، لكن ليس هذا سبب وقوفي هنا».

«وما هي شكواك إذن؟»

أخذ نفسًا عميقًا وقال: «أبي رجل صالح، أنجب طفلين توأمين. قدّر الله لي أن أموت صبيًا، بينما عاش أخي وكبر. دخلت الجنة مع الداخلين، لكني وجدت أن منزلة أبي أعلى من منزلتي بكثير».

قلت: «آه، لعلك تتساءل لماذا نزلت مرتبتك عن مرتبة أبيك وترغب في أن ترتقي لتكون معه؟»

«نعم، لكن ليس هذا لبّ الموضوع. حين قدّمت شكواي في البداية، أخبروني أن مرتبتي أقل من أبي لأنّه سبقني بالطاعات. فسألتهم: لماذا قبضتم روحي مبكرًا ولم تتركوني أكبر وأجتهد في الطاعات لأصل إلى

مرتبة أبي؟ أجابوني بأنهم يعرفون أني لو عشت بعد البلوغ، لكنت سأعصي الله، فقبضوا روحي رحمةً بي، على حد زعمهم، وأدخلوني هذه المنزلة الوسطى. على الأقل أنا في الجنة، حسب قولهم، ولست مثل أخي في النار».

قلت له: «منطق معقول».

فردّ بمرارة: «لكن لماذا لم يطبّقوا نفس هذا المنطق على أخي التوأم؟ هو كبر وعصى الله وصار في النار. لماذا لم يقبضوا روحه مثلي قبل أن يبلغ ما داموا يعرفون أنه سيكون عاصيًا، ليكون معي هنا في الجنة؟ هذه هي شكواي. أقدمها نيابةً عن أخي الذي لا يستطيع الوصول إلى هنا لتقديم دعواه بنفسه».

دار رأسي من الاستماع الى التظلمات التي تنهال على قسم الشكاوي، والتي تبدو وكأنها سيل لا ينتهي. أحدهم يطلب الإذن لزوجته، التي ترافقه في الجنة، بأن تحمل وتنجب ليعيش متعة الأبوة مجدداً بصحبة أطفاله الصغار وضحكاتهم ولهوهم. وآخر يريد أن يسمع اغاني فيروز، إذ أن المتوفر هو فقط أصوات الجواري يترنمن بالتسبيح والتحميد والثناء على الله. وثالث يحنّ إلى الأرجيلة ويطلب نكهة المعسّل برائحة التفاحتين التي اعتادها في الدنيا. وآخر يريد شبكة انترنت لمتابعة قنواته المفضلة في اليوتوب وتطبيقات السناب شات والفيس بوك، طلبات تتوالى وشكاوى لا تنقطع، تفتقر الى حلول لا تنتمي الى هذا العالم.

رفعت رأسي فإذا بأزيز أجنحة الحرس يقترب مني. يلقون عليّ بكلاليبهم ليلتقطوني ويحلقون بي خارج سور الأعراف، متجهين إلى دار السلام. أنزلوني عند رضوان على بوابة الجنة.

قال لي مبتسماً: «أخيراً يا ابن السارح، وجدنا اسمك في قائمة المفقودين».

أجبته بارتياح ممزوج بقلق: «الحمد لله، ولو أن عبارة المفقودين لا تبدو مطمئنة».

قال بنبرة جادة: «لم يحن وقتك بعد».

تتسارع دقات قلبي: «ماذا؟ إذن، ما الذي أفعله هنا؟»

أجابني بابتسامة خفيفة: «حدث لبسٌ عند عزرائيل، قابض الأرواح. ليست هذه أول مرة يخطئ فيها، ويبدو أن هذا العمل قد أثّر عليه. سمعت أنه قدّم طلباً للانتقال إلى وظيفة أخرى».

سألته بفضول: «ما الذي حدث بالضبط؟»

أجاب: «ظنّ أن وقتك قد حان حين غشّت القطة موتك فخدعته ودعست بالخطأ على مسكّن الألم. لكنك لم تمت بعد، ولأنك وصلت إلى هنا وشاهدت ما شاهدت، سنقدم لك عرضاً لا يمكنك رفضه. سنكمل رحلتك ونأخذك في جولة على الجنة والنار، ثم نعيدك إلى دنياك».

تنفست الصعداء وقلت: «يعني، لم أمت بعد؟»

ابتسمت، فقد بدا لي الأمر منذ البداية غير واقعي، لكن متى كانت الآخرة واقعية؟ سأقبل بالعرض، فما الذي سأخسره؟ صحيح أن المرور على الصراط أرعبني، وربما يشيب شعري حين أعود، لكنها ستكون قصة رائعة أرويها لزوجتي على العشاء كل ليلة، كعرض مسبق خاص أُتيح لي، مثلما يُتاح لنقاد الأفلام السينمائية مشاهدة العرض قبل العامة.

أخبرني رضوان أني سأكمل رحلتي بمفردي، وأن قدميّ ستقوداني بلا مرافقة، ولو أني أعلمُ أن أعين الحراس ذوي الأجنحة ستبقى تراقبني. قال لي وهو يشير الى المدخل: «لا تخبر أحداً من أهل الجنة أو النار أنك عائد إلى الدنيا، وتجنب معاشرة أي حورية. تلك هي الشروط».

الجنة

غادرتُ مكتب رضوان بعد أن حصلتُ منه على تأشيرة الدخول الى جنة عدن، رحلة واحدة فقط بإقامة مفتوحة بالشرطين الذين أوصاني بهما. دوّن بياناتي في جهاز الآيباد الذي يتدلّى من عنقه ثم مرّره على راحة يدي كما يفعل موظفو المنافذ الحدودية التي كنت أسافر عبرها في دنياي الفانية. تقودني قدماي نحو سور الجنة وأنا مازلت أقاومُ شعوراً بعدم التصديق أنني على وشك الولوج الى الفردوس الموعود الذي وعدَ الله به عباده الفائزين. أتأمل السور عن قرب فإذا هو حائط طوبه من الذهب الخالص لا أستطيع ادامة النظر إليه من شدة سطوعه تليه لبنات من الفضة تتخلله، مثل كاسرات الضوء، كي لا يخطف الأبصار. تتدلّى من قمة السور أغصان خضراء تتفتّح عليها أزهارٌ بألوان لم أرَ مثلها قط، أوراقها تُغلق وتتنفس وكأنها تلطّف من حدة لمعان اللبنات المذهّبة. عبثًا حاولت التعرف على أيٍّ منها، رغم خبرتي السابقة حين عملت في مشتل لبيع النباتات، قبل أن أنتقل إلى هيئة الترفيه. أدخل من «باب المتوكلين»، الذي تعلوه يافطة كبيرة مضاءة بما يشبه مصابيح النيون الملون وقد نُقش عليها بأحرف بارزة من خط النسخ «ادخلوها بسلام آمنين». دخلتُ عبر البوابة المهيبة التي لا يبدو لها حدّ، وقلبي بين الرجاء والرهبة، غير مصدق أني سألج الى جنة النعيم. ألتفتُ حولي خشية أن يكتشف أحدهم خطأ ما في الإجراءات فيمنعني من الدخول. أحس بقدمي خفيفة وكأنني أطفو مثل رواد الفضاء الذين كنت أشاهدهم يمشون على سطح القمر في مقاطع اليوتوب. أسير على تربة ناعمة، ممزوجة بما يشبه الزعفران وماء الورد، تبث في الهواء عبقا منعشا وتعيدني بذاكرتي إلى ماء الورد الطائفي الذي كنت أبيع منه زجاجات صغيرة عندما كنت طفلًا في حارتنا.

ما إن عبرت البوابة، حتى أحاطتْ بي مجموعة من الحور الحسان، تصدح من حناجرهن ترانيم تمجّد الله وتحمده على التمام والكمال. بادرنني بالسلام ثم هنّأنني بسلامة الوصول، وأهدينني أكاليل من الورد الأبيض الناصع. التقطت إحداها وقرّبتها من أنفي لأشم عبيرها، فإذا بها تتفتح في لحظة، ثم تتحول بين أصابعي إلى ما يشبه الحلوى. أشارت إليّ إحدى الجواري أن أتذوقها، وأنا الذي لم أذق بعد طعاماً أو شراباً منذ صعودي إلى الملأ الأعلى، ولم أشعر بجوع أو عطش. فركتها برفق بين يدي لتتحول الى كرة لزجة داكنة السواد محشوة بقطع بيضاء كجوز الهند المغموس بالشوكولاتة. طعمها أطيب وألذ من كل الحلوى التي ذقتها في حياتي الفانية. تشجعت والتقطت وردة أخرى لأتذوقها، لكنها هذه المرة تحولت بين يدي إلى حورية لم أرَ أجمل منها. تقفز بخفة من بين يدي لتقدم لي كأسا من شراب حلو بارد امتزج طعمه برحيق الحلوى وأنساني كل ما مررت به من آلام في دنياي. همست لي بأنها كانت تنتظرني قبل أن أولد، وأنها ستكون رفيقتي استدعيها متى شئت بمجرد التفكير بها. شكرتها وتابعت المسير رافعاً بصري، لأرى قبة عظيمة لا شمس فيها ولا نجوم؛ فلا ليل ولا نهار، بل قبة هلامية يشعّ منها نور لطيف، يغمر المكان بهالة من الضياء الخافت والظل الدائم. أما الهواء فكان لطيفاً عليلاً يميل قليلاً للبرودة، يذكرني حين أضبط ثرموستات التكييف في بيتي على درجة ٢٤ مئوية، أو بنسمات روضة برودان قرب قريتنا الرغبة في يومٍ خفيف المطر والسماء تمطر ديمة لا تنقطع.

ظهر أمامي تل صغير، يخفي وراءه مشهداً آخر مثل سرّ مخبوء. صعدت التل بخفة لأطلّ على مشهد يسحر الألباب؛ منازل وقصور على مد النظر، أنهارٌ وعيون، أشجارٌ وطيور وأناسٌ متفرقون في تلك الرياض الخضراء اليانعة. نزلت من التل وسرت في طرقات تتبدل تربتها تحت قدمي إلى حصباء تشبه تلك التي في بطون الأودية لولا أنها حبات من اللؤلؤ الممزوج بالياقوت الأحمر، تبرقُ مع كل خطوة. الرجال والنساء

هنا في سنّ واحدة تقريبًا، وكأنهم جميعاً في منتصف الثلاثين، وعلى هيئة متقاربة في الشكل والطول. حين رأيتهم يمشون سويا، مختلطين وهم يضحكون ويتبادلون الحديث، عادت بي الذاكرة إلى عملي السابق في الهيئة، حين كنت أطارد الشبان والفتيات في الأسواق والطرقات، لأفرّقهم بعضهم عن بعض، خشية أن يدخل الشيطان بينهم. ملابس أهل الجنة زاهية فاقعة الألوان، يغلب عليها الأخضر والأصفر، بحواف مزركشة تذكرني بأزياء أبطال المسلسلات التاريخية التي كنت أشاهدها في صغري. صوت الحلي والقلائد المعلقة في الصدور والمعاصم والكواحل تصدح وهي تتصافق في مشهد سريالي طريف، يذكرني بفرق الهيفي ميتال من سبعينيات القرن الماضي. لو أعطيت أحدهم غيتاراً، لظننت أنه عازف في فرقة هارد روك.

أتابع سيري وسط جمع من الناس، يبتسمون لي ابتسامة العارف وكأنهم يدركون أنني وافد جديد. يرفع أحدهم إبهامه علامةً على أن كل شيء سيكون على ما يرام. أبادلهم التحية، وأنا لم أعتدْ بعد على تلك الأحوال العجيبة والمشاهد والوجوه الجديدة. تمرّ من حولي سيارات مسبوكة من الذهب الخالص تجوب الطرقات، معظمها من نوع الكشف التي تعانق الهواء برشاقة وبعضها من ذوات الدفع الرباعي لصعود المرتفعات وكأن التلال تنحني تحت عجلاتها اللامعة. تذكرت أجواء فيلم «أفاتار» من أفلام الخيال العلمي الذي شاهدته يوماً في صالة السينما، لكنني الآن لا أراقب الشاشة من الخارج؛ بل أعيش التجربة من الداخل وكأنني أحد شخصيات الفيلم. أواصل طريقي بين مناظر تتناوب في إبهاري، فأمرّ بقصور تذكرني بتلك التي رأيتها في بيفرلي هيلز، وأكواخ أنيقة تردّني إلى ذكريات رحلتي مع زوجتي إلى الريف السويسري خلال شهر العسل.

تقدمت حتى أشرفت على غابة ذات أشجار عجيبة؛ جذوعها متوهجة كالذهب، وأوراقها تلمع كحبات اللؤلؤ. عند المدخل، تراكمت أكوام من

ملابس زاهية الألوان، براقة، وقد ألقاها أصحابها مبعثرة بلا ترتيب، كأنهم قد خلعوها على عجل في لحظات لا تحتمل التأني. انحنيت لأتفحص تلك الأقمشة المزركشة بخيوط ذهبية، وإذا بي أكتشف أنها ليست من حرير ولا من قطن، بل هي مصنوعة من مادة البوليستر. لكن ما أثارَ دهشتي حقاً هو الملصق الصغير المثبت أسفل كل قطعة، وعليه عبارة: «صنع في الصين»! وبينما أنا أعاين تلك الملابس، تتناهى إلى سمعي أصواتٌ خافتة، أقربُ الى الهمسات الممزوجة بالأنين. أقتربُ أكثر وبحذر لأتبين مصدر الأصوات، فإذا هي تأوّهات شهوانية تتخللها كلمات وأحاديث تدلّل وعبارات شبق وإيقاعات هزّ.

وفجأة وجدتُ نفسي أمام صفوف من السرر المتقابلة، عليها رجال ونساء عراة، يمارسون الجنس في مشاهد تتراوح بين اللقاءات المنفردة والممارسات الجماعية، في هيئة لا تخلو من الانفلات الصارخ، وكأنني وسط حفلة عربدة وتهتّك، كتلك التي كنت اختلس النظر إليها في موقع البورنو هب الإباحي على الإنترنت. أفزعني المنظر، فغادرت المكان سريعاً وبين ضلوعي مشاعرُ مختلطة من الاشمئزاز والتعجب.

خرجت هائماً على وجهي محاولا أن ألتقط أنفاسي، وباحثا عن نسمة تهدئ من روعي، فإذا بصوت عذب ينساب من بعيد، أقربُ إلى الغناء منه إلى الكلام. توقفت للحظات محاولاً تتبع الصوت وأنا غير مصدق أذني، أيمكن أن يكون هنا أحدٌ يغني؟ ولمَ لا. كل شي ممكن هنا. تمتد أمام ناظري حديقة غناء، تتناثر بين جنباتها شجيرات متوسطة القامة، مقصوصة الأطراف بعناية حتى بدتْ وكأنها لوحة طبيعية من وحي الخيال، كتلك التي كنت أراها معلقة في قاعات المتاحف. قادني الصوت عبر تلال منبسطة، مغطاة بحشائش خضراء ناعمة ومزينة بأطراف من عناقيد اللؤلؤ، وفوقها على ارتفاع قليل تحلق فراشات ملونة، لتضفي سحرًا على المشهد. اقتربت أكثر، محاولاً فهم ما يقوله هذا الصوت

العذب، أدركت حينها أن الصوت لامرأة. واصلتُ السير نحوها بخطى متسارعة حتى وقعت عيناي عليها أخيرًا. فتاة ترتدي قبعةً عريضة الحواف يتدلى منها شريط أحمر، وفستانًا قصيرًا منفوشاً أحمر اللون مرقطاً بنقط بيضاء، وكأنه من أزياء الستينات الصيفية في القرن العشرين. كانت تغني بمرح وحبور، وتلاحق الفراشات بخفة وسعادة، كما لو كانت جزءًا من هذا المشهد الساحر.

«يا. يا.

يا واد يا تئيل.

يا. يا. يا مشيبني.

ياااه، دانا بالي طويل.

وانتا. إنتا عاجبني!»

تقدمت ببطء وأنا أنقل قدميّ بخفة على عناقيد اللؤلؤ التي تكسو الأرض، فيما صوتها العذب يتردد في الأجواء، لكنّ وقع خطواتي جعلها تنتبه فجأة فتتوقف عن الغناء. حاولت أن أختبئ خلف إحدى الشجيرات، لكنها لاحظتني فنادت بصوت مرح:

«مين هناك؟»

تلعثمت وأنا أجيب:

«أنا. أنا ابن السارح».

سألت وهي تضحك:

«بِتعملْ إيه عندك؟»

قلت مبتسماً:

«أستمتع بالصوت الجميل. وبالقدّ الميّاس، سبحان من صوّر!»

احمرّ وجهها خجلًا، فاغتنمتُ الفرصة لأقترب أكثر، وعندما أصبحت قريبًا بما يكفي، ميّزتُ ملامحها. تبادلنا السلام والتحية، ثم سألتها بذهول:

«من؟ أنتِ. أأنتِ السندريلا؟»

ابتسمتْ وقالت بسعادة:

«سعاد حسني، يا أفندم».

لم أستطع إخفاء دهشتي: «معقول؟»

ردّت بخفة: «هوّ إيه اللي معقول؟»

قلتْ بحماس:

«لم أتوقع أن أرى بطلة 'خلي بالك من زوزو' و'صغيرة على الحب' و'السفيرة عزيزة' هنا في دار السلام!»

ضحكتْ قائلة: «يعني هوّ بسْ انت اللي حتدخل الجنة؟»

أجبت مرتبكا:

«لم أقصد ذلك».

رفعت حاجبها مسائلة:

«أمآل تقصد إيه؟»

تنهدت وقلت:

«سمعت أحدهم قال إنك غادرتِ الدنيا منتحرة بعد أن سقطت من شرفة شقتك في لندن».

قاطعتني بابتسامة: «ما تصدّقهوش».

«يعني غير صحيح؟»

ردت بهدوء:

«وحتى لو صحيح، ما تحكمش على الناس. وبعدين، أنت وغيرك ما تعرفُوش اللي بيني وبين ربنا».

«فعلاً، كلامك صحيح».

أجابت بثقة: «ربنا شملني بلطفه ورحمته اللي وسعت كل حاجة».

قلت لها ممازحًا: «بأمارة إيه؟»

ابتسمت وقالت: «بأمارة حاجات كتير مستخبّية. برسايلي لربنا ودعواتي ليه. وبأغنية غنّيتها وماحدّش مفتكرها».

ثم بدأت تغني بصوت شجي:

«لحظة سجودي هي دي لحظة لقاك.

وفي كل خطوة ماشي جنبي ملاك.

وفي كل دمعة من العيون بتسيل.

تلمع في نور شمسك وتحضن سماك».

قلت ممازحا:

«يعني تريدين مني أن أصدّق بأن أغنية مجهولة ترجح في موازين الله؟»

«وانت ايه اللي عرّفك في موازين ربنا؟ ما مُمكن الحاجة اللي بتشوفها قليّلة عند الناس بتكون كبيرة عند ربنا».

قلت موافقاً:

«لله في خلقه شؤون وفي تدابيره الحِكم. وماذا بعد، أيتها السندريلا؟»

أجابت وهي تضحك:

«ولا حاجة. دَه إسعاد الناس يا فندم وادخال البهجة على قلوبهم ليه فضل عظيم. ربنا يبصّ على القلوب زي ما يبصّ على العمل».

أخذنا الحديث الممتع عن حياتها في الدار الفانية، وأتتْ على بعض أسرارٍ مدفونة واخرى توقفت عن البوح بها، وكأنها تفضّل أن تبقى مدفونة. انتهزتُ الفرصة وقلت لها: «عندي طلب أخير. هل يمكن أن أسمعك تغنين 'الدنيا ربيع والجو بديع'؟»

ابتسمت بلا تتردد، وبدأت السندريلا تغني بمرح طفولي مُعدٍ، سرعان ما جذب إليها كل من كان قريبًا، فاجتمع حولنا شباب وفتيات، وكأن جمالها

وروحها المشرقة اجتذبا الجميع كما كانت تجذب الفراشات التي كانت تلاحقها منذ قليل، فما تدري منْ يلاحق جمال منْ. لكنّ شيئاً ما فيها، يميزها عن كل من حولها؛ جمالها ليس صاخباً ولا مزخرفاً بل هادئ دافئ، يألفك وتألفه وتستشعر دفء حضوره، كأنه يتسلل برفق إلى أعماق روحك دون ضجيج أو بهرجة. هو جمال لا يفاجئك بكثرة ألوانه ولا بغزارة تفاصيله، بل يمتدّ كجذور عميقة في طين الأرض الفانية، التي احتاجت دهوراً لتُنتج بشراً مثلها. جمالها متجذر، أرضي وطبيعي، لا يشبه جمال الحوريات السماوي المُصنَّع، الذي يكاد يكون أشبه بمنتجات الذكاء الاصطناعي الباردة وخواريزماته، خاليا من روح ومعاناة الحياة الحقيقية.

وحين فرغتْ من الغناء، نظرتُ إليها قائلاً: «لدي سؤال أخير لا بد أن أسأله قبل أن أغادر».

ردّت ممازحة: «إيه، جاي تعملْ معايا لقاء صحفي؟»

ضحكت وأجبت: «يُقال إنك تزوجت أكثر من مرة في الحياة الفانية. فهل كان عبدالحليم أحدهم؟»

ابتسمت وقالت بمرح: «ما تسأله هو».

تساءلت بدهشة: «تقصدين أن حليم هنا في الجنة؟»

أجابت بخفة:

«أيوه، بس يمكن في مرتبة أقل مني بشويّة. بتاع خمسمية سنة!»

قلت مترددًا: «ليس عندي كل هذا الوقت لأنزل إليه وأسأله».

ردّت ضاحكة: «ليه، فاكر نفسك هتطلع من هنا أو ترجع للدنيا؟»

تذكرت حينها طلب رضوان لي بأن أكتم خبري، واكتفيت بالابتسام. ثم سألتها: «على الأقل، أخبريني. من هو زوجك الآن؟»

ضحكت مجدداً وهي ترد: «هو كل حاجة عندكم تتمحور حول الجواز؟ أنا مبسوطة زي ما أنا. في ظل رحمة ربنا».

ثم بدأت تبتعد وهي تتراقص وتقفز وتغني، والغلمان والفتيات يجرون خلفها في مشهد بديع، والجو ربيع.

تابعت مشيي وأنا أفكر في السندريلا وما جاءت على ذكره سريعا من الخبيئة التي بينها وبين الله، وخطر ببالي قولٌ قديمٌ قرأته لأهل التصوف من أن «الأركان عندهم أربعة: كف الأذى وحمل الجفا وشهود الصفا ورمي الدنيا بالقفا». ربما كان هذا هو ما عنته بحديثها، لكنّ نظرات عيونها الأخيرة الحائرة وأنا أغادر بقيتْ لغزاً عالقا في ذهني. وكأنها تريد أن تبوح بشيء لم أفهمه.

وفيما أنا سارحٌ بأفكاري، إذْ بصوت ينادي مستغيثًا طالباً المساعدة. ألتفِتُ نحو مصدر النداء، فأرى رجلاً واقفا أسفل شجرة عملاقة ملتفة الأغصان، ملوّحًا بيده وهو يستنجد بي لدفع سيارته الكاديلاك والتي علقت عجلاتها في تربة عجيبة، مزيج من المسك والعنبر، وقد تحولت إلى طين لزج بفعل ماء الزعفران المتساقط من الشجرة. تساءلتُ في نفسي أين فرق الصيانة عنه، ولمَ لمْ تبادر لنجدته؟ لعلّ عدد الداخلين في النعيم قد زاد بفضل الله فلم يعدْ المجنّحون قادرين على تلبية كل طلباتهم في وقت واحد، أو ربما هي حكمة الهية تقتضي ذلك وكفى. أقترب من السيارة لأرى ملصقا مكتوب عليه «كداليكَ نجزي المحسنين». بجانب الرجل تجلس حسناء فاتنة، ذات قوام مكتنز، بأرداف مستديرة ونهديْن نافرين. وفي المقعد الخلفي، تجلس حوريتان نحيفتان، بملامح أقرب إلى عارضات الأزياء اللواتي يتألّقن على أغلفة مجلات الرياضة بملابس البحر. بعد أن ساعدته في تخليص سيارته من ذاك الطين العطري العجيب شكرني الرجل وعرض علي أن أختار إحدى الحوريّتين في

الخلف، هدية منه، لكني اعتذرت بلطف، مذكّرًا نفسي بوعدي الذي قطعته لرضوان.

هزَّ رأسه ضاحكًا وقال: «ربما تفضّل الكواعب الممتلئات مثلي؟ إذا كان الأمر كذلك، دعني أنفخ في إحداهن لتصبح مثل رفيقتي هذه التي بجانبي».

وقبل أن أنطق بكلمة، مدّ يده الى إحدى الحوريتين في الخلف ليمسك بها ثم ينفخ في فمها مثلما كنا ننفخ في كرات الشاطئ الملونة التي كنا نلهو بها صغارا، ليمتلأ جسمها وتتعاظم اردافها استدارة.

حدّقت للحظات في وجهه الذي بدا لي مألوفا، قبل أن أنفجر بدهشة: «مهلاً! أهذا أنت؟ العم عبده. حلاق حارتنا؟»

انفجر ضاحكاً بصوت عالٍ، وكأن المشهد بأكمله بات كوميديا طريفة، وقال: «ومن تكون أنت، يا رعاك الله؟»

أجبته مبتسمًا: «أنا ابن السارح. كنت أتردد على محلك مع بعض الرفاق من الفتيان».

هزّ رأسه متذكرًا وقال: «لعلك كنت تقص شعرك عندي».

«نعم، ولي مآرب أخرى.» خجلت أن أذكرها له.

ضحك بخبث وقال: «آه. ربما كنت تقصد تلك الأفلام الخالعة التي كنت أقرصنها وأبيعها لكم».

صمَتَ لبرهة قبل أن يكمل: «إيه. كنت أعيشُ حياة اللهو والمجون في شبابي، مغامرات لا تنتهي من مغازلة الفتيات وقرصنة الأفلام لبيعها للفتيان الغرر أمثالكم. لكن الله غفر لي في النهاية».

سألته متعجباً: «بإمارة ماذا؟»

أجاب بثقة: «بإمارة 'وجوه يومئذٍ ناعمة'«.

«ماذا؟»

ابتسم وقال: «أتذكر تلك اللوحة المعلقة عندي في المحل؟»

حاولت التذكر. «أذكر مكانها فوق كرسي الحلاقة، لكن لا أتذكر محتواها».

أجاب بفخر: «كانت لوحة مزخرفة بإطار عتيق، مكتوب عليها الآية الكريمة 'وجوهٌ يومئذٍ ناعمة'. كنت دائمًا أنزلها من مكانها وأنظف غطاءها الزجاجي وأمسح عنه الغبار، وأهتمّ بها وأصونها من الإهمال. غفر لي ربي خطاياي لعنايتي بكلامه».

ثم أشار مبتسماً إلى سيارته الكاديلاك:

«أتريد أن آخذك في جولة؟ هل أطلب من صاحبتي الجلوس في الخلف لتتسع لك المقصورة؟»

«لا، شكرًا. ولكن أخبرني، ما الذي دفعك للتوقف تحت هذه الشجرة العملاقة وأنت تعلم أن التربة هنا قد تعلق سيارتك؟»

«جئت لشحن السيارة بالطاقة. كما تعلم، جميع السيارات هنا كهربائية؛ فلا مكان للتلوث في جو الجنة النقي. الأفياش المخصصة للشحن مثبتة في جذوع الأشجار، وكل ما عليك هو التوقف تحتها. سمعت أن شركة صينية تولّت تمديد الكابلات داخل هذه الأشجار. يبدو أنهم لم ينتبهوا إلى أن التربة هنا قد تتحول إلى طين غريب عندما تمتزج بماء الزعفران فتعلق فيه العجلات».

فتحت عيني بدهشة: «ماذا. شركة صينية يا عم عبده؟!»

ضحك وقال:

«جماعة من خزنة الجنة تابعين لرضوان ولكنهم يتميزون بعيون ضيقة. هكذا نُطلق عليهم هنا».

سألته مبتسمًا: «ألا تفتقد مهنتك القديمة أحيانًا؟ ألا تشعر برغبة في حلاقة شعر أحدهم أو لحيته؟»

اقترب مني وتحدث بصوت خافت: «أشتاق أحيانًا، لكن كما تعلم. أهل الجنة مُرد كحل، ليس لهم شعر إلا ما فوق رؤوسهم وكأنه باروكة ثابتة كتلك التي يرتديها الصلعان. أتدري أن جاري في الحديقة المجاورة كان حلاقًا مثلي؟ ظل يجول في تلال الجنة يبحث عن أحد له شعر ينمو ليحلقه، ولم يجد! سمعت أنه في لحظة يأس حاول الهرب من الجنة، لكن الحرس من ذوي الأجنحة أوقفوه وألقوا به في الأعراف. ربما أصبح حلاقًا هناك للأرواح التائهة».

ودّعته وأكملت طريقي دون أن أشعر بأي تعب رغم صعودي ونزولي المتكرر. لا ليلَ هنا ولا نهار، مجرّد نورٌ ضبابي يغمر المكان متفاوتاً في شدته، وكأن الزمان يدور في حلقة أبدية مفرغة، يتكرر كلما انتهى، ليبدأ من جديد.

غادرت الطريق العام لأنزل في منخفض مفروش بالورود المتنوعة الألوان، تفوح منه روائح كأنها أنفاس الفجر. هناك، تجمّع غلمان وحوريات في حلقة ضيقة متحلّقين حول دوحة وارفة وهم يحيطون بشاب في الوسط وكأن وجوده كنز دفين لا يريدون لأحد أن يكتشفه. في قلب هذا المشهد، لفت انتباهي ذلك الشاب بعفويته وهو مضطجع على الأرض، ساقاه النحيلتان ممدودتان أمامه. يعتدلُ في جلسته ويسند ظهره إلى جذع الشجرة التي لفّت أغصانها حواليه في حنان. يشير بطرف عينيه الى إحدى الحوريات لتقفز بخفة في حضنه وتلف ذراعيها حول ظهره وهي ملتصقة به ثم تتحول بقدرة الله الى آلة وترية أشبه بالعود. يمد يده فوق رأسه لتحط فراشة على كفه وتتحول الى ريشة يُدوزن بها أوتار عوده فيما يتخذ الحضور أماكنهم وقد حبسوا أنفاسهم استعداداً لما سيخرج من فم هذا الشاب الذي يصدح صوته بألحان عذبة، تخرج مصحوبة بلكنة مميزة، كنسمة محملة بعطر الورود التي تكسو المكان. تلك اللثغة المحببة في نبراته تضفي على صوته سحرًا خاصًا يجذب الأرواح ويأسر القلوب:

«عطني المحبة.

كل المحبة.

عطني الحياة.

عطني وجودي.

أبغى وجودي.

أعرف مداه».

تتمايل الرؤوس على وقع كلمات موّاله «لي في محبتكم شهود أربعة». اقتربتُ أكثر لأتبيّن وجه الرجل ذي الابتسامة الوضّاءة والوجه السمح، فإذا به الفنان طلال مداح، صوت الأرض. والآن، بلبل الجنة. ألقيت عليه التحية، فرد بابتسامة دافئة وضحكة صافية مستبشراً بقدومي وكأنه يعرفني منذ زمن:

«أبو عبد الله؟ لا أصدّق عيني!»

رد مبتسمًا: «تصدّق ولاّ أحلف لك؟»

انفلتت مني الكلمات بلا تفكير:

«أنا اللي عجزت بلساني أوصف لك».

«تصفْ لي إيه؟»

«أصف فرحتي برؤيتك هنا».

أجاب برضى: «الله يسعدك بشوفة من تحب في دار الكرامة».

«آمين يا رب. أخبرني؟»

«تفضل».

«تجربتك الغنائية ثرية يا أبا عبد الله، هل يمكنك اختصارها بكلمة واحدة؟»

رد بثقة: «مقادير».

«فعلاً، هي مقادير وتمضي. حسناً، وما هي أقرب أغنية لقلبك؟»

يعتدل في جلسته قبل أن يجيب ليقفز العود من حضنه ويعود حورية كما كانت من قبل.

«روحي وما ملكت يداي فداه، وطني الحبيب وهل أحب سواه».

قلت بإعجاب: «الله. الله».

استغرقنا في الحديث عن ذكرياته مع العود، رفيق دربه الذي كان يعزف عليه، وعن القلوب التي جمعها بصوته وأسرها بطيبته، وعن الشعراء والملحنين، والسفر، والحفلات التي أمتعَ فيها الجميع.

«على ذكر الحفلات. هل تذكر آخر عهد لك بالدنيا الفانية؟»

ابتسم وهو يسترجع:

«تقصد الحفلة التي كانت على مسرح المفتاحة؟»

«نعم».

أجاب وهو يسرح بذاكرته:

«آخر ما أذكره من دنياي هو وجوه الناس الضاحكة السعيدة في المدرّجات ومشاعر الفرح والسرور تلمع في عيونهم. ثم فجأة توقّف قلبي عن الخفقان وغبت عن الدنيا».

«وهل كنت تتمنى هذه النهاية؟»

«محدّش يتمنى نهايته، لكن بصراحة. قل لي أنت، مش أحسن من اني أموت وأنا مثلا أعاني وأتألم على سرير في مستشفى والآلات تحاصرني والإبر بتغرز في جسمي والمورفين بيسري في دمي؟ أو يمكن في بيت فقدت فيه ذاكرتي ووعيي، غريب عن ذاتي، ونسيت تاريخي ومين أكون وصرت ما أعرف احد وعبء وعالة على أولادي؟ أنا أشوف ان موتي وأنا في كامل قوّتي وفي أفضل حالاتي، جسدا وعقلاً وروحا، وأنا أصدح

وأغني وأرسم البهجة على وجوه اللي حولي وفجأة. يتوقف قلبي عن النبض، هي من أرق وألطف وأعذب النهايات اللي أكرمني فيها ربي».

«ونعمَ بالله».

«وبعدين فيها إيه؟ أليستْ بأمر ربنا؟»

«نعم، ولكن الناس يتحدثون ويسيئون الظنون».

فقال بصدق:

«اسمعْ حياتي، لا تسئ الظن فيّ».

«معاذ الله أن أسئ الظن، ولكن الناس يطلقون أحكاماً».

«حكّم ضميرك، قبل ما تحكم عليّ».

قلت: «يقولون. يا لها من نهاية!»

«النهاية ليست هناك. النهاية هنا».

قلت بإعجاب: «فعلاً، ويالها من نهاية. روحٌ وريحان، لكن».

«لكن إيه؟»

«بأمارة ماذا كان فوزك بهذا النعيم؟»

أجاب بثقة: «بأمارة حبّ الناس لي وإسعادي لهم. أنبلُ فن هو إسعاد الآخرين».

«وماذا أيضاً؟»

«وكف الأذى. إن لم تنفع الناس فلا تضرهم».

«وماذا بعد؟»

«وإن لم تفرحهم، فلا تغمّهم».

سبحانك ربي. ودّعت صوت الأرض الذي صار بُلبل الجنة بعد أن عادَ إلى متكئه، وسط محبيه يصدح فيها بصوت عذب كالسحر. لكن ما زال

هناك شيء لم يقله وكأني أحسست فيه عبرَ نبرة صوته مثلما أحسستُ بنظرات السندريلا الحائرة حين غادرت.

أرتقي في منازل الجنة حتى بلغتُ رقعة نديّة باردة في أحياء الفردوس الأعلى، قرب قصور الأنبياء والأولياء والمرسلين. هناك بين القصور، استوقفني بيت من الياقوت الأزرق، تتلألأ جدرانه تحت نور سماوي لطيف وأمام البيت يجلس رجلٌ بملامح وقورة، عيناه ثاقبتان وشعره قصير مجعّد، متكئًا على أريكة منخفضة، وقد وضع ساقًا على الأخرى، وكأنه أستاذ جامعي يتأمل سكون السديم البارد الذي يمرّ عبر نوافذ البيت المشرعة. يغمض عينيه برفق وكأنه يتحسس الهواء اللطيف الذي يلامس وجهه، ليستشعر حرارته أو يتذوق برودته.

اقتربت منه دون أن يلحظني، إذ بدا غارقًا في تفكير عميق، وكأنه يحاول حل مسألة رياضية شائكة. كان وحده، فلا نساء ولا شراب كما هو الحال عند غيره. انتبه لي فجأة وابتسم قائلاً:

«المعذرة، لم أدرك أن هناك أحدًا غيري هنا».

«أرجو ألا أكون قد قطعت عليك خلوتك».

رد بلطف: «لا بأس، تفضل. سأطلب من أحد الخدم أن يقدم لك ما يلزم».

وما هي إلا ثوان حتى ظهر غلام يدور حولي بكؤوس من خمر الجنة. أخذت رشفة وأكملت حديثي: «لاحظت أنك، على عكس الآخرين، تجلس وحدك وكأنك لا تكترث كثيرًا بالملذات والمتع المتاحة هنا».

ابتسم بثقة وقال: «أنا من أعطى للمتعة معناها».

استغربت وقلت: «كيفَ ذلك؟»

أجاب بثقة: «لقد كيّفت المتعة ورفعتها إلى مستوى آخر من الراحة والانبساط، بعد أن كان الإحساس بها ناقصًا».

قلت مستفسرًا: «ماذا تقصد؟»

قال بفخر: «بعد أن عاش البشر لآلاف السنين في أجواء خانقة إلا من وسائل بدائية لتلطيف الجو وقت الحر، قدّمت لهم أحد أعظم اختراعاتي».

سألته: «ومن تكون، أيها الرجل؟»

قال بهدوء: «أنا ويليس كارير».

قلت متذكرًا: «كارير؟ الاسم ليس غريبًا».

ابتسم وقال: «ربما تعرفني من مكيفات الهواء المعلقة في البيوت والمتاجر وأماكن العمل».

ضحكت وقلت: «آه، نعم، أنت من اخترع نظام تكييف الهواء! يا مال الجنة الباردة! لقد برّدت المكان وعدّلت الزمان وأرحت البلاد والعباد من شدة الحر».

أشرت للغلام بأن يتوقف عن الدوران وتقديم الشراب. ثم قلت: «أتعلم، يا سيد كارير، أن صورتك معلقة في بيتي، وكنت أطالب بإقامة تمثال لك في كل مدينة تحت حرّ شمسنا الحارقة».

بتواضع رد: «أشكرك على تلك اللفتة، لكن الله أكرمني بأعظم من ذلك. بدخولي دار السلام».

سألته: «بأمارة ماذا؟»

أجاب مبتسمًا: «بأمارة دعوات الناس لي بظهر الغيب».

قلت: «وماذا بعد؟»

قال: «وبالعلم النافع الذي أوصلته لغيري وحوّلت به أجواءهم الملتهبة إلى أخرى مريحة ومنعشة، مكّنهم من العمل وممارسة حياتهم بيسر وسهولة. مليارات البشر استفادوا من اختراعي الذي عدّل حياتهم في دنياهم الفانية».

«لكن، ماذا عن الضرر الذي تسببه أجهزة التكييف للبيئة؟ يُقال إن أحد أسباب الاحتباس الحراري هو الغازات المنبعثة من صنع الإنسان، بما في ذلك من تلك الأجهزة».

ابتسم وقال: «لا تلوم المزارع على جودة محصوله إن أسرف المشتري في أكله».

أجبته معتذرًا: «عفواً، لم أقصد اتهامك شخصيًا».

ردّ بهدوء: «أعلم ذلك، ومع أن هذه القضية لم تُطرح في زماني، إلا أن على البشر أن يتعلموا كيف يعيشون بمسؤولية مع ما تمنحه لهم حضارتهم الإنسانية من اختراعات».

قلت: «لكنهم أسرفوا في استهلاكها بشراهة».

نظر إليّ وقال بحكمة: «تلك مشكلة الأحياء منهم، وعليهم حلّها بأنفسهم إنْ أرادوا الاستمرار في البقاء على كوكبهم الهش».

بعد أن قضيت وقتًا ممتعًا مع السيد كارير، استأذنت للمغادرة قائلاً بابتسامة: «لا تقل لي إنهم يحتاجونك هنا لأعمال الصيانة!»

ضحك وقال: «لا، لا يحتاجوني للصيانة، لكن الله أكرمني بأن أطلعني على بعض أسرار الجو اللطيف هنا».

أكملتُ سيري وسط مشاهد بدت وكأنها لوحات أسطورية أبدعتها يد فنان بارع، ورسمها بدقة عجيبة وتصوير متقن، تذكرني بعوالم أفلام الرسوم المتحركة التي كنت أعشقها في طفولتي. كنت أستمتع بتذوق الطعام والشراب دون أن أشعر بجوع أو عطش أو إحساس بتخمة. من بعيد، تلوح خيمة هرمية الشكل فوق تلّة تشرف على بحيرة من اللبن الأبيض الصافي. اقتربتُ أكثر لأرى عناقيد العنب والموز تتدلى من أطراف الخيمة على أروقتها المسدلة، إلا الجهة المطلة على البحيرة حيث بقيت مشرعة. حين بلغتُ الخيمة، نظرت إلى داخلها فإذا بحوريات يتمايزن

في الحسن والجمال. ما بين ذوات الأثداء النافرة، الى ذوات المؤخرات البارزة والأرداف المستديرة، مضطجعات على فرش من حرير زاهي الألوان ومتوسّدات مساند خُضرًا مزينةً بريش النعام. يذكرني المكان بديكورات قصور الخلفاء في المسلسلات التاريخية التي كنت أتابعها في طفولتي حيث يلتقي البذخ بسحر الحكاية.

سمعت صوت قهقهات خفيفة تتعالى من جهة البحيرة، فالتفتُّ لأرى رجلًا تنساب ذؤابة شعره على كتفيه، يخرج من الماء الأبيض بصحبة حسناوتين، وهو يشبعهما ضمّاً وتقبيلا ثم يلفّانه بما يشبه رداء الاستحمام ليمسح عنه ما تقاطرَ من اللبن على جسده. المشهد بدا لي وكأنه مقتطع من فيلم سينمائي شهير، حيث يخرج البطل من البحر، وأظنه جيمس بوند، متأبطاً ذراعي فتاتين، إلا أن جمال هاتين يفوق كل ما رأته عيناي في دنياي الفانية. إحداهما كأنها مرآة صقيلة تكاد ترى صورتك منعكسة على صفحة جسمها الملساء، والأخرى بدرجة أدنى لكنها لا تقل سحرًا وجاذبية.

انتبه الرجل لوجودي وناداني بحفاوة:

«أهلًا بالضيف، تفضل».

دخلتُ الخيمة، فوجدته يستبدل رداء البحيرة بآخر مزركش بألوان زاهية، بينما إحدى الحسناوات تلف جسدها بغطاء شفاف أصفر اللون وهي تنشد بصوت عذب:

«أصفر معصفر ليت محسن يشوفه.

توّه على حد الغرض ما بعد لمس».

سلّمت عليه فردَّ التحية.

«أرجو أن لا أكون قد قطعت نزهتك في البحيرة».

يرد بابتسامة: «على العكس. جئتَ في وقتك. لو تأخرت أكثر وأنا أسبح في بحيرة اللبن، لأصبح رائبًا!»

«من أنت يا هذا؟»

«أنا محسن الهزاني».

تملكني الذهول: «عميد شعراء الغزل؟»

«أهكذا يقولون عني!؟»

جلسنا على الفرش المبثوثة، فسألني عمّا أشتهي، فتركت له اختيار القائمة. صفّق بيديه، فظهرت من بين أرجل حورياته مائدة عامرة بأطايب الطعام والشراب. وبعد أن فرغنا من تناول ما لذ وطاب، بدأت أحاوره عن أشعاره في وصف محبوباته ومغامراته العاطفية معهن، وهل ما يُقال عنه حقيقة؟

«كيف وجدت الحور هنا؟ أهنَّ بمثل ما وصفت به نساء الدنيا في شعرك عن الثنايا والعواتق والخدود والجدائل والنواهد والحجول؟»

ضحك وأجاب: «بفضل ربي، هنّ كذلك وأكثر. ولكن!»

توقف فجأة، حين ناولته إحداهن مشطًا يسرّح به شعره. تركته ليكمل عبارته لكنه تراجع وكأن في نفسه كلاماً يخشى البوح به. حاولتُ أن أشجعه ليكمل استدراكه لكنه لم يرغب في أن يسايرني وكأنه يخشى مما سيقول. ماذا يمكن لشاعر غزل أن يخشاه في دار الكرامة، وماذا عساه أن يستدرك على الحور العين؟

«كيف لشاعر مثلك، معظم شعره في الغزل والإخوانيات، اشتهر بقصصه الغرامية أن ينتهي به الحال هنا في جنة الخلد؟»

ابتسم وأجاب: «أحمد الله أن الأمرَ ليس بيدك!»

سارعت قائلاً: «المعذرة، لم أقصد أن أستكثر عليك نعيم الله، ولكن بماذا نلتَ كل هذا الفضل؟»

«بعفّتي ومروءتي، رغم كل ما سمعت عني. ألم تعلمْ أن الشعراء يقولون ما لا يفعلون؟»

ثم أضاف بصوت مؤثر: «وسؤالي ربي في الليالي العظيمة، بالأنفال والحج والضحى والليل الذى أحياه تلقاه شافع، وقولي:

فأنا الذي بك أمدّ الرجا.

فلا خاب من مدّ فيك الأمل».

«وماذا بعد؟»

«ودعائي أطلب الغوث:

دع لذيذ الكرى وانتبه ثم صلْ.

واستقم في الدجى وانتبه ثم قلْ.

يا مجيب الدعا يا عظيم الجلال.

يا لطيفًا بنا دائمًا لم يزلْ».

ابتسمت وقلت: «هل بقي شيء؟»

«نعم، أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك».

غادرت وأنا أقرأ شيئا في نظرات عينيه، وكأنه يريد أن يقول إن حورياته هنا مهما بلغنَ من حسن وجمال لم يكن ليضاهين «هيا»، تلك التي قال عنها بين البروق وبين مبسم هيا فرق.

واصلت سيري بين أودية الجنة وأنهارها متجنّباً الخوض في أنهار العسل الدبق كي لا يلتصق برجلي ويعيق تقدمي. تمرّ السيارات حولي ومن فوقي أحيانا ومعظمها من الطراز الصيني الفاخر. انحرفت عن الطريق العام لأمشي في حديقة غناء يتوسطها كوخ صغير جدرانه تبدو من الفضة وعلى شرفته الأمامية يجلس أحدهم على مقعد وثير مادّا ساقيه في استرخاء، بينما هناك آخر واقفٌ يتفحص شجرة أغصانها من اللؤلؤ. بدا

أنهما غير مكترثين بالملذات المحيطة، ولا بالنعيم الحسي الذي يفيض في المكان. شدني الفضول، فاقتربت من الجالس وسألته:

«من تكون؟»

أجاب بهدوء:

«أنا سولك».

ترددت للحظة، ثم استفسرت: «سولك. من؟»

«جوناس سولك. وذاك الواقف هناك هو نورمان بورلاغ».

«المعذرة على تطفلي، ولكنني لا أرى أيًّا منكما برفقة الحوريات مع أنّ المتع حولكما والملذات في متناول أيديكما».

ابتسمَ ابتسامة خفيفة وقال: «كل نفس وما اشتهت».

«وماذا كنتما تفعلان في حياتكما الفانية؟»

أجاب: «كنت طبيبًا وباحثًا، وزميلي هناك عالم نباتات. ولعل أحدًا لا يكترث لنا الآن».

«ويبدو أنكما، بدوركما، لا تكترثان كثيرًا بالملذات والنعيم الحسي هنا. هل أنتما سعيدان؟»

رد علي بابتسامة مصطنعة، تخالطها مشاعر من الحسرة المكبوتة «بالتأكيد، هذا أفضل بكثير من المكان الآخر».

لم أستطع مقاومة فضولي، فسألته: «وما الذي منحكما جواز الدخول إلى دار المقامة؟»

فكّر للحظة، ثم قال: «يمكنك أن تقول إن بورلاغ قام بتصحيح ما بدأه الله حين وضع البذور في الأرض».

اعترضت: «وهل خلقُ الله يحتاج إلى تصحيح؟»

ابتسم بتسامح وأجاب: «ألا ترى بعض المواليد تولد ملتصقة فيتدخل الإنسان لفصلهما؟»

«وما الذي فعله صاحبك بالضبط؟»

«طوّر سلالات جديدة من الحبوب، خصوصًا القمح، لتقاوم الآفات وتزيد الإنتاجية. بفضل ذلك، وجد الناس طعامًا يكفيهم في ظل تزايد السكان المفرط على كوكبهم الهش».

توقف قليلًا وأضاف: «يمكنك أن تقول إن بورلاغ كان يد الله التي أوقفت المجاعات التي كانت تفتك بملايين البشر في أرجاء الدنيا الفانية».

شعرت بالرهبة مما قال، ثم سألته: «وماذا عنك؟»

أجاب بهدوء: «أنا يد الله التي ساهمت في شفاء الملايين من الأطفال».

«وكيف ذلك؟»

قال بفخر مشوب بأسى غامض: «طوّرت لقاح شلل الأطفال بعد أن كان المرض يسلب الأطفال حياتهم أو يتركهم بإعاقات دائمة».

بقيت لبرهة أجاذبه الحديث بعد أن استأنس بوجودي واطمأن لي، ليخبرني أنه وُلد يهوديا بينما صاحبه مسيحي، وأن ليس في معتقدهما حياة أخروية تتمحور حول الملذات والمتع الحسية. كان يريد أن يقول أشياء أخرى، ولكنه بدى لي مترددًا وكأن أحدًا يراقبه، فاكتفى بما قال.

أواصل السير بين دروب الجنة وطرقاتها التي لم تألفها عيناي بعد ولم تتعوّد على عجائبها، مذهولا مما أراه. أخوض في أنهارها الرقراقة، وأتفرج على قصورها الباذخة، أذوق من طيبات موائدها، وأكحّل ناظري بجمال حورها. وكلما دنوتُ من إحداهن لأقطف قبلة انسلّت كطيف عابر من بين يدي، فقد كان الاتفاق مع رضوان صارماً؛ لي الحق فقط في تذوق الطعام والشراب، ولا شي غير ذلك، كي أعود إلى دنياي التي ودّعتها مؤقتاً.

من بعيد لمحتُ حائطاً مضاءً بنور بنفسجي خافت. اقتربتُ أكثر فإذا هي أغصان متشابكة بملمس ناعم كالحرير، وحواليها تتراقص الفراشات كأنها زينة في عرس سماوي. سرت بمحاذاة الحائط حتى وصلت إلى بوابة تزينها اللآلئ وتعلوها لافتة مكتوب عليها بخط الرقعة: «مقهى درب الزلق - لصاحبه حسين بن عاقول.» أسمع صوت قهقهات وضحكات صاخبة تعلو من الداخل، مختلطة بأصوات الحلي التي تصطفق على أقدام راقصات حسان، وهنّ يتمايلن برشاقة أمام الجالسين على كراسٍ زرقاء مستطيلة تذكرني بتلك التي كنت أشاهدها صغيرا في المقاهي الشعبية. أنظار الحضور مشدودة صوب رجل يجلس في المنتصف، يعتمرُ غترة بيضاء، فيما شعر رأسه الطويل ينسدل على كتفيه، يلقي النكات على الحضور الذين غرقوا في الضحك، وانقلب بعضهم على قفاه من شدة الحبور.

ألقيت السلام وتقدمت لأرى من يكون صاحب هذه الشخصية الآسرة التي جذبت الأنظار وأخذت القلوب، فإذا به الفنان عبد الحسين عبد الرضا! هبّ واقفاً مرحّباً حين رآني، دعاني للجلوس بجانبه، وأشار إلى أحد الغلمان ليسكب لي من إبريق الشاي الذي كان يحمله بيده، دعوة ولا في الخيال وسط أجواء من الرقص والمرح.

قلت ممازحا: «شاي يا بو عدنان؟! قد مللنا من الشاي. نريد شراب الجنة الأقحواني».

ليردّ علي بابتسامة ماكرة «على بالك هذا شاي الدنيا؟»

«إذن ماذا يكون؟»

«لا يا معوّد. هذا شاي الينّة، هذا اللي ذكره ابن الزعفراني في عجائب الزمان! ذوق.»،

تناولت رشفة منه، لتتبدّد أمام نكهته كل أكواب الشاي التي ذقتها يوماً في دنياي. أخذنا الحديث عن حياته ومواقفه الطريفة، عن مسرحياته وحبّ الناس له، حتى قاطعني ليقول: «تدري أن جدّام قهوتنا هذي مسرح؟»

استغربت: «ماذا. مسرح في الجنة؟!»

«نعم. وسميناه المسرح العربي. ترى عندنا عرض بعد شوي اذا ودّك تحضر».

سألته مبتسماً: «بصراحة، هل توقعت أن تكون هنا يا بو عدنان؟»

ردَّ مبتسماً: «أملي دوم بالله كبير، بغيتها صافية يالأخو وجتْ على ما تمنّى».

«ونعمَ بالله، وبعد؟»

«وفوق ما تمنّى».

بفضول عميق قلت: «بأمارة ماذا غفر الله لك يا بو عدنان؟»

أجابني بهدوء وبعد تأمل قصير:

«بفضل ربي والنوايا السليمة».

«وماذا بعد؟»

«بالذكر الحسن، وادخال السرور على القلوب المتعبة والنفوس المرهقة».

«وماذا بعد؟»

«وطيب السريرة وصفاء النية وحب الخير للناس على اختلاف الأجناس».

«وماذا بعد؟»

«شكو بعد غير كذا.!»

لم يترك لي مزيداً من التساؤل، لكني سألته في لحظة صفاء: «أين صاحبك قحطة؟»

ضحك وقال: «بغى ينحاش، لكن صادوه عند سور اليَنّة».

«يهرب. ولماذ يهرب؟»

«مشتهي قدو، وما وفّروا له».

«وأين هو الآن؟»

ابتسم وهو يقول: «سمعت إنه الحين في الأعراف».

أكمل شرب الشاي فيما يشير عبد الحسين إلى رجل يهم بالخروج، وسألني بخبث طفولي: «تدري من اللي قام قبل شوي مع ذيك المزيونة؟»

نظرت إليه متسائلاً، «من؟»

فأجابني: «عمرو».

«من عمرو هذا؟»

أجاب وهو يرفع حاجبيه: «أبو الحكم، عمرو بن هشام».

بعد لحظة صمت وتفكير، قلت بدهشة: «تقصد أبو جهل؟ هنا، في الجنة؟!»

همس عبد الحسين محذراً: «قصّر حسّك! لا يسمعك تقول عنه أبو جهل. من ساعة وحنا نطنّز عليه وهو يضحك معنا».

«ألم تسألوه كيف انتهى به الحال هنا وهو من تعرف؟»

«وحنا شكو نسأل. واحد وأنعم الله عليه. ما سألنا اللي في الدنيا شلون ربي عطاك، تبينا نسأل اللي في الينة».

«إذن لمْ تسألوه».

«بلى، للأسف فيه واحد ملقوف عندنا سأله شنو يابك هنا. تدري وش رد؟»

«قل لي ماذا كان جوابه».

«المغفرة أرزاق. دخل الجنة من هو شرٌّ مني «هذا كان رده.

«فضل الله يؤتيه من يشاء. ولكن. قصص التراث تجمع على أنه من أهل النار!»

«قصّر حسك. هذا هو قدامك في الينّة. بعدين من اللي يقرر مصير البشر. سوالف التراث أو رب العالمين؟ تدري أنه راعي سوالف ونشاوره في مسرحياتنا. خوش ناقد ومفكر وحكيم. ولا يجامل. وبارّ بأمه. كل يوم يمر يسلم عليها في قصرها وما خلى الينّة تشغله عنها، مو زي البعض التهى بحورياته ونسى أهله. واسال ان حبيت ربعه من قريش تلقاهم مجتمعين في الحي اللي ورانا وانت طالع. يقولون انه هو اللي حمى بنات النبي يوم بغى ربعه يطبون على بيته».

استأذنت من عبد الحسين لمغادرة مقهاه، فخرج معي للباب مودّعا إياي بضحكته المعهودة قائلاً: «باي باي يا الأخو».

خرجت وأنا أقرر اللحاق بعمرو بن هشام، لأتقصّى خبره وأعرف حكايته، وكيف غفر الله له حتى صار في دار الكرامة، لكن الرجل كان مشغولا بالحورية التي كانت معه فكرهت أن أتطفل عليه وهو على تلك الحال، تحت عذق نضير من عذوق الجنة، فتركته على أن أعود له لاحقا إذا مررت بمقهى بن عاقول، متذكرًا ما قرأته قديمًا عن أم سلمة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأيت لأبي جهل عذقا في الجنة فلما أسلم عكرمة قال يا أم سلمة هذا هو.

استمر في مشيي فيما مركبات مذهبة مرصعة بالياقوت وأخرى من الألماس المرصع باللؤلؤ تنساب حولي ومن فوقي في كل اتجاه. أتعجب كيف لا تصطدم ببعضها بعضاً، ثم تذكرت كلام العم عبده من أنها مجهزة بحساسات ذكية مانعة للاصطدام، طورتها شركة صينية حسب زعمه. طرازات المركبات منوعه. بعضها من نوع المرسيدس وأخرى من الروز رويس والبورش وحتى الشفروليه وكثير من طرازات الفينتيج الكلاسيكية لكنني لم أشاهد أي نوع من التويوتا أو النيسان. يصل الى

مسامعي صوت رخيم يتلو آيات من الذكر الحكيم. التفت لأرى محمد صديق المنشاوي يرتّل بخشوع وهو يقود سيارته صاعدًا للأعلى فيما تجلس بجانبه حورية مكتنزة الجسم. لمحني من بعيد وأشار علي إن كنت أرغب في توصيلة، لوّحت له شاكرًا وواصلت سيري.

هبطت الى وادٍ يخترقه نهر بلون غريب، مزيج من الأصفر الفاتح والبني الداكن. اقتربت من ضفته وغرفت شيئا من مائه لأتذوقه، فاذا هو عسل مصفى. بدأت عبور النهر بحذر لكني سرعان ما علقت في وسطه بفعل لزوجته الكثيفة، لم أعد قادرًا على التقدم أو حتى العودة إلى الضفة التي جئت منها. وكلما حاولت تحريك قدمي، ازددت انغماسًا فيه. لمحت رجلا وامرأة يسيران على الضفة فناديت عليهما لينقذاني من ورطتي التي وقعت بها. تمدّ المرأة بطرف شعرها القصير نحوي وأنا أحسبها تستهزئ بي فإذا بشعرها يمتد ويطول أمام ناظري ليصل عندي ثم تنادي علي وهي تطلب مني ان اشدّ عليه بيدي. ترددت خوفًا من أن أسبب لها ألمًا ناسيًا أنه لا ألم في الجنة، لكنها شجعتني ثم ما لبثْتُ أن سحبتني بعد أن أحكمتُ قبضتي على شعرها. وصلت ضفة النهر وأطلقت شعر المرأة من يدي ليرتد الى رأسها مذكرا إياي بشريط القياس القابل للسحب والذي كنت استخدمه في عملي بالهيئة. خرجتُ من النهر بصعوبة وإذا بالمرأة تشير الى جواريها كي يُزلْن ما علق بي من عسل. تحلّقن حولي، وطرحنني على الأرض، ثم ركبن فوقي وبدأن يلعقن العسل عن جسدي، حتى إذا وصلن إلى أخمص قدمي، انفجرت ضاحكًا في نوبة قهقهة جعلت المرأة ومرافقها يقفان جانبًا، يبتسمان وهما يراقبان المشهد.

دفعتُ الحوريات عني ونهضت واقفًا لألقي التحية على من أنقذني من ورطتي. أقتربُ أولا من المرأة لأرى وجهاً خجولا سمحاً تحاول أن تشيح بناظريها عني، ويتدلى من عنقها قلادة ذهبية على شكل أشعة شمس، وفي معصمها أساور من حبات اللؤلؤ. بالرغم من كل هذا البذخ في الحلي

والمجوهرات وكل تلك الأناقة التي ظهرت بها إلا أنها بدت لي وكأنها فتاة ريفية بسيطة، في ملامحها تواضع أصيل. وجهها بدى لي مألوفا، من بين كل الوجوه لا يمكن أن أنسى من تكون:

«من؟ الليدي ديانا؟»

«أهلاً وسهلاً». ردت بصوت ناعم خجول.

مضت لحظات وأنا غير مستوعب لما حدث لي. كنتُ قبل قليل عالقاً في نهر من العسل اللزج أكاد أغرق فيه، ثم تهبّ لنجدتي أميرة ويلز، تمد لي بشعرها القصير فيطول ويتمدد كحبل إنقاذ أتشبث به قبل أن تنقضّ علي حوريات يلعقن ما علق بي من عسل، لا يمكن أن يحدث هذا سوى في الأحلام أو في جنة عدن، لكني لست متأكدًا بعد من كيفية معرفة الفرق بين أيهما أنا فيه.

قطعت الأميرة حبل أفكاري قائلة:

«أوه نسيت أن أعرفك بمن معي. هذا هو الفنان جيم كروشي».

أنظرُ، فإذا برجل ذي ملامح ايطالية، كثّ الشعر يعلو شفته شارب كثيف، عرفت حين اقترب مني أن شاربه توليفة من اوراق الشجر، يرتدي قميصا مفتوح الصدر تتدلى منه قلادة ذهبية، وبنطالاً من الجينز يذكرني بفتيان الهيبيز. ينفذ دخان سيجاره التي في يده قرب وجهي. رائحة خشبية قوية ومعتقة بعبق القرنفل مع خليط من نفحات التوابل والشوكولاتة وقليل من القهوة المخلوطة بالعسل.

حاولت أن ألملم افكاري مستجمعاً قواي لأبدأ حديثي، لكن العبارات تناثرت في ذهني ولم أعرف من أين أبدأ، فتتدخل الأميرة لتنقذني مرة أخرى وتسألني إن أردتُ مرافقتهما نحو بيتها، وأشارت الى ما يشبه الكوخ الصغير في أعلى التلة. ذكّرني منظره بتلك الأكواخ البسيطة التي اعتدنا رسمها صغارا في حصص الرسم بالمدرسة. ظننت لوهلة أنني سأرى قصرا مهيباً على طراز قصر بكنجهام، لكن يبدو أن الأميرة تفضّل

العيش البسيط. هل يمكن أن يحيا أحد هنا متقشفًا زاهدًا، يتغدى «جبنة وزيتون ويتعشى بطاطا» كما كانت تقول صباح؟ وهل يُسمح له أصلًا بذلك وكل ما حواليه يضجّ بالمتع والملذات الحسية ليغرق فيها حتى الثمالة؟ لكن ما المانع إذا كان هذا ما يريده؟ أليس فيها كل ما تشتهي الأنفس؟ تُترك بسلام دون أن تغرق نفسها في بحر الملذات ولا يستهويها الانغماس في أنواع العربدة المتاحة.

قرأَتْ ما في عيني من تساؤل ثم أطرقت رأسها بخجل مشوب بحذر، وكأنها تخشى الإفصاح عن أمر ما. لكن حين شاهدت حيرتي وأحسّت بما يدور في بالي تشجّعت قليلا وتمتمت بكلمات لم أتبيّنها كاملة، لكني استشفّيت منها أن حياتها المتواضعة وسط كل هذه المتع والملذات الحسية أشبه ما تكون بحياة عاقل وجد نفسه بين مجانين غارقين في نوبة من الهلوسة الجماعية. تملّكني إحساس حينها بأنها ربما رأت فيّ ذلك «العاقل» الذي يستأنس به النزيل الصاحي الوحيد في مصحة ما. اعتذرتُ عن تلبية دعوتها، رغم أن في بالي اسئلة كثيرة تدور حول مصير زوجها وابنائها، لكني آثرت أن لا أفتح هذا الباب معها، لاسيما وانها تبدو راضية مع جيم كروشي. قبل أن أغادر، ناولني جيم صندوقًا فاخرًا من السيجار علمتُ منه أنه إنتاج محدود بعد أن قام مجموعة من الكوبيين بلفّه بأيديهم من أوراق تبغ نمت في حقل صغير قريب من نهر العسل، وهو ما يفسر تلك النكهة العسلية التي تفوح منه.

يمضيان معاً، وجيم يشدو بصوته الدافئ رائعته:

«لو كان بإمكاني أن أختزن الزمن في قارورة،

لجعلت أول ما أفعل أن أحتفظ بكل يومٍ يمر،

حتى تنقضي الأبدية وتمضي العصور،

فقط لأعيشها جميعًا معك».

واصلت مسيري بين التلال، صعودًا وهبوطًا دون إحساس بأي تعب أو مجهود. أحيانا تمتلئ الدروب حولي بالبشر في لهوهم وصخبهم، غارقين في نشوة عالمهم الجديد الذي وجدوا أنفسهم فيه، وأحيانا أخرى لا أرى سوى صفوف من الجواري والغلمان يتحركون بانتظام وكأنهم فرق صيانة سماوية، يحرصون على راحة الساكنين لضمان تهيئة الأجواء المثالية لهم. أمشي حيناً على قدمي، وحيناً آخر ترتفع قدماي عن الأرض قليلا، محلّقاً بخفة وكأنّ هناك محركًا ساكنًا من دون صوت مثبتا في باطن قدمي استعمله متى شئت بمجرد التفكير فيه، وهي طريقة تعلمتها من أحد الذين قابلتهم أوّل ما وطئتْ قدماي هذا المكان. وبينما أنا كذلك، التقطت أذني صوت هتافات وصيحات قادمة من وادٍ منخفض.

أستمر في التحليق حتى أشرف على ملعب فسيح يحتضن مباراة في كرة القدم بين فريقين وحولهما اصطفت جماهير تلوّح بحماس من فوق مدرجات فضية مطعمة بالزمرد. يحلق بعض الغلمان فوق الملعب يراقبون سير اللعب للتأكد من أن المباراة عادلة بين الطرفين كي لا يستخدم أحد اللاعبين بعض الامتيازات أو الحيل وما أكثرها هنا. استطعت بسهولة أن أميّز قائد الفريق الأول بأسلوب لعبه ومناورته للخصم مرتديا فانيلته الصفراء ورقم عشرة المطرز على صدره. بيليه، ينساب بين الخصوم بمراوغات ساحرة. أما الفريق الثاني بفانيلاته البرتقالية فاحتجت بعض الوقت لأتعرف على قائده يوهان كرويف. ينطلق من الفريق الأول أحد اللاعبين ممشوقي القوام مسرعًا باتجاه المرمى ليسجل برأسه هدفًا في الفريق البرتقالي ثم يلوح بيده للجماهير التي ردت عليه بالتحية والهتاف. دققت النظر، فاذا هو باللاعب ماجد عبد الله.

لم أكن من عشاق كرة القدم، فأكملت مسيري دون أن اتوقف ماضياً في هذا العالم العجيب. قد تكون دهشتي خفّت قليلا مع التجوال واعتياد

المناظر الساحرة، إلا أنني ما زلت مذهولا بما أرى كمثل طفل صغير يدخل مدينة ديزني لاند لأول مرة في حياته، ينتقل من لعبة لأخرى حتى يجرّب كل ما يجده في مدينة الملاهي ثم يبدأ من جديد. تُرى، هل ستبدو الألعاب جديدة له كل مرة؟ أم سينسى تجربته الأولى ليبدأ وكأنه يبدأ من جديد، وكما لو أنها المرة الأولى؟ أم سيستمر في رؤية العاب لم يرها من قبل وتظهر له تباعاً في سلسلة لا تنتهي؟ لست أدري. كل ما أدري هو أن كل شي هنا يبدو جديدًا وكأنه خرج للتو من علبة الهدايا في قراطيسها التي لم يُنزع عنها غلافها بعد.

أكمل مسيري لأرى نوراً يلوح من بعيد فاقترب بخطوات مترددة لأسمع صوتا شجيّاً يغني وحوله التمّت مجموعة من الفتيان والفتيات، وجوه متوهجة بالأنس والطرب. يبدو الصوت مألوفًا لي، أدنو أكثر لأرى عوض الدوخي وهو يشدو برائعته صوت السهارى. في الصف الأول من الحضور استطعت ان أتعرف على ليلى مراد وهي تجلس الى جوار نجيب الريحاني، يتمايلان مع اللحن متشابكي الأيدي، وكأننا في مشهد حي من فيلم غزل البنات. التفتُ الى الجالسة بقربي فإذا هي جارتنا أم سليمان! ابتسمتْ حين رأتني وهنأتني بما أنا فيه. سرعان ما تذكرت زوجها، ذاك الذي كان حضوره لا يغيب عن ناظرها، وزواجهما مضرب المثل في حارتنا بطول العشرة وصدق المودّة. اذكر أنه توفي قبلها لكن مالي لا أراه معها؟ سألتها عنه وسط غمرة الصوت فأشارت بيدها إشارة مقتضبة، وكأنها تقول إنه هناك. في «المكان الآخر». صُعقت من ردها وكأنها تتحدث عن شخص غريب لا يمتّ لها بصلة. أزواج وأمهات وأبناء افترقوا عن أحبّتهم، دون أن يبدو على وجوههم أثر حزن أو فاجعة! أيّ فقد هذا، إن كان «المكان الآخر» هو الجحيم؟ كيف يهنأ المرء وهو يعلم أن له أحباباً مصيرهم الى المكان الآخر.

لم أجرؤ أن أسألها أكثر، وتركتها تردد مع الدوخي بصوت متهدّج: أبطى ركابه وراح.

الناس في الجنة يبدون وكأنهم منتشون تحت تأثير مخدّر جماعي قوي؛ وجوههم مترعة بالنشوة، أشبه بمن يتعاطى حبوب الهلوسة أو يطفو في ضباب الحشيش. الموت هنا قد دفن معه كل ألم، فلم يبقَ إلا ابتسامات باهتة ساكنة، وبهجة مبرمجة لا تنطفئ. تراهم أحيانًا كالمنوّمين مغناطيسيًا، أو كآلات بشرية تدار ببرنامج واحد مثل الروبوتات؛ وكأنهم في حالة همود او سبات دائم ومشاعر الحب والبهجة مبرمجة فيهم بلا غيرة أو حسد. كأنهم شخصيات كرتونية في عالم من الفانتازيا، أو ممثلين وُضعوا في يوتوبيا لا يملكون فيها أن يكونوا غير سعداء. ومع ذلك، فثمّة قلة متمرّدة لا تُعلن عن نفسها، تتسلل بين الحين والآخر بحثًا عن صدع في السور، تحاول الفرار من هذا الفردوس المبرمج. ينتهي بها المطاف إلى أرض الأعراف، حيث تصطف في طوابير طويلة عند مكتب الشكاوى، تشكو بصوتٍ خافت من النعيم الذي أفرغهم من وعيهم. كأنهم أدركوا أن السعادة التي تُبرمج قسرًا لا تعود سعادة، بل نوعًا آخرَ من السجن، جدرانه ألين من الحرير لكنه يظل سجنًا.

لم ألقَ في تجوالي أحداً من أهل العصور السحيقة، أولئك الذين عاشوا قبل الأديان؛ ربما لأنهم لم يكونوا مؤمنين بدين أو عقيدة تُدخلهم في معادلة الحساب المؤجل، فلا مبرّر لاستدعائهم أصلًا وفكرة الثواب والعقاب لم تُولد بعد. جنة الله – في وعي البشر - إنما هي انعكاس يلوح في النفوس أكثر مما هو وعدٌ في السماء. يراها الفقراء والمرضى والمحرومون ملاذًا يتشبثون به ليعوّض قسوة واقعهم، ويتعلّقون بالرجاء أن يكون لهم فيها نصيبٌ يومًا ما. بينما الأغنياء والأصحاء، الذين لا يكادون يحتاجون إليها، يفكرون فيها على أنها ختمُ رِضى من صانع الوجود عليهم، إذ لولا رضاه – في ظنهم – لما أُفيضت عليهم النعم وسالت لهم الحياة رخاءً.

الأديان – في أصلها – لم تكن سوى محاولة لتهذيب الدنيا وتحويلها إلى جنّة مؤجّلة، إلى يوتوبيا مؤخّرة، مشروع لتحقيق العدل الغائب وإزالة المعاناة على أمل أن يصبح العالم الأرضي في نهاية أمره صورة مُثلى من العالم المتخيل في السماء، وكأنها تقول للإنسان: لن تبلغَ الجنة هناك حتى تُنشئها هنا. الله، إن صحّ القول، قد أوكل للناس مهمّة إصلاح أنفسهم، منحهم عقلًا وسلمهم به آلة التفكير وترك لهم السبيل لينشغل عنهم بما هو أعظم. فاخترعوا الدين كرحلة في الطريق، يتوكأ عليه بعضهم لأنهم لا يقوون على السير عراة من اليقين، فيما واصل آخرون المسير بغير حاجة إليه.

ها أنذا أرى مصائر البشر، فالمؤمن منهم وجد نفسه هنا، لا لشيء سوى أن نصيبه من الحساب لم يُستوفَ في الدنيا. أمّا غير المؤمن، فمكانه ليس هنا أصلًا؛ إذ لم يُقرّ بوجود هذه العوالم، فكيف يُستدعى إلى مسرح لم يعترف به من البداية؟ من ظلمَ غيره وضُبط في حياته الفانية ورُدّ الحقّ إلى أصحابه، فلا حاجة لمحاسبة ثانية، بل يُفتح له الملكوت لينعمَ بما كان يظنّه، ومن لم يُضبط وهو مؤمن فسيلقى حسابه هنا كما هو ظنّه. ستبقى المظالم تقع بين الناس ويفلت منها من يفلت، مؤمنا بهذا المكان او غير مؤمن، غير أن اللوم في ذلك يقع على البشر أنفسهم، لأنهم لم ينضجوا بعد، في مسيرتهم الطويلة، نحو جنتهم التي ينوون تحقيقها على الأرض وسيظلون متعلقين بهذا المكان لإلقاء عجزهم عليه وتجيير مهمة تحقيق العدالة ورفع المعاناة إليه، إلى أن يبلغوا يوما جنتهم المصنوعة بأيديهم في دنياهم الفانية. وحين تتحقق تلك اليوتوبيا المنشودة على الأرض، تنتفي حينها الحاجة الى جنة السماء. دار السلام ليست وعدًا معلّقًا في الغيب بقدر ما هي مرآة لمحاولات البشر في صياغة العدل ورفع المعاناة عن عالم الشهادة. أما الله، فهو في مكان أبعد، ينظر من عليائه، تاركًا لعباده أن يكتبوا بأنفسهم فصول خلاصهم، حتى لو اضطروا إلى اختراع أديانٍ بأكملها كي يحتملوا عناء الطريق.

النار

يخبرني أحد الحراس أنه قد حان الأوان لأرى النار عن قرب مثلما رأيتُ الجنة عن قرب. شعرتُ بقلبي يهوي بين ضلوعي وأوشكتُ أن أغير رأيي. أنا الذي كنت أشيح بناظري عن نشرات الأخبار كلما ظهرت مشاهد مؤلمة لضحايا الحروب والقتل والعنف، بل وحتى حين أنوي مشاهدة فيلم كنت أتحقق أولا من تصنيفه في دليل العنف الخاص به، فإذا علمت أن فيه شيئا مروّعا أو مناظر مخيفة توجسّت منه وتركته الى غيره فكيف بي الآن وأنا على وشك أن أرى، كما قيل لي، مشاهد حية لأجساد تحترق، وأنفس تُعذّب، وجلود تُشوى وسلاسلَ وأغلالاً تُجرّ، وسعيرًا يتلظى؟ لا أدري كيف طاوعتني نفسي لأقبل بالذهاب مع الحارس وكأن شيئا ما يدفعني دفعا لاستكشاف ما ينتظرني، مثل مراسلي الحروب الذين يخوضون غمار المعارك والأشلاء تتساقط حولهم دون أن يُثني ذلك من عزيمتهم.

يأخذني الحارس معه عبر ممرات ملتوية متعرجة كالمتاهة، وكأن من صمّمها أراد أن يضلّل كل من يحاول الوصول إلى نهايتها. يحمل الحارس في يده جهازًا يشبه الآيباد الذي يستخدمه رضوان، يتفحصه بين الحين والآخر ليدله على الطريق. اختلس نظرة سريعة دون ان ينتبه لأرى شعار «غوغل ماب» يلمع على شاشة جهازه. بدأت مظاهر البهرجة والزينة تتلاشى من حولنا في الممرات، الأشجار تضمحل والنباتات تبهت وتختفي، وأنهار العسل واللبن تغيب، وبريق الذهب والفضة ينطفئ، وحتى الطريق نفسه تغير وأصبح مرصوفا بحجارة عادية بدلا من الطين المعجون بالزعفران وماء الورد. خرجنا من تلك الممرات إلى ساحة واسعة تتوسطها لافتة كبيرة مكتوب عليها ممنوع الدخول، ذكرتني بمواقف البوليفارد. يأخذني الحارس معه حتى نقبل على بوابة تعلوها يافطة أخرى مكتوب عليها «منطقة الخدمات».

استأذن لي صاحبي من حارس البوابة لنسلك سويّا طريقاً وسط منطقة أشبه ما تكون بالورش الصناعية التي كنت أرتادها أحيانا في حي أم الحمام، أثناء عملي بالهيئة لإصلاح عطل بالسيارة او صيانة ماكينة أو تعبئة غاز الفريون للمكيفات. كل من أراهم هنا هم من الغلمان او الجواري او الحرس المجنحين أما النزلاء أصحاب النعيم من أهل الجنة فمحظور عليهم الدخول او حتى الاقتراب من هذه المنطقة، وبما أني لست من اهل الجنة بعد، فلا بد انهم حصلوا لي على استثناء للمرور عبر منطقة الصيانة هذه. يمر الغلمان والجواري بقربي دون تحية أو سلام أو حتى ابتسام كما كانوا يفعلون في الجنة. وجوههم جامدة، خالية من أي تعبير، باردة دون أي ملامح وكأنهم منومون مغناطيسيا أو كآلات تتحرك وفق برمجة مسبقة. أسترقّ النظر لأرى بعضهم يدخل في مبانٍ من دور واحد تعلوها لافتات كُتب عليها محطة الشحن التلقائي. نقف عند أحد الورش ليقترب الحارس مني متفحصا جسدي كما يفعل الخياط حين يأخذ مقاساتي ثم ينادي على أحدهم داخل الورشة ويعود ومعه شي يلمع. أنظر فاذا بدلة كاملة (اوفرول) تلتصق بها خوذة للرأس كتلك التي يرتديها العاملون في إطفاء حرائق البترول وهي تسطع من اللمعان. نأخذها معنا بعد أن جربت مقاسها ونكمل المسير. بالرغم من أني اعرف الى اين نحن ذاهبون، الا أن سكينة غامرة تغشاني. ربما لثقتي بمن منحني الإذن بزيارة هذا المكان ومعرفتي بأنه سيرعاني ويحفظني حتى عودتي.

خرجنا من منطقة الورش لنصعد بخطى ثقيلة تلّة متدرجة الارتفاع نحو سور آخر يطل على ما سمّاه الحارس الهاوية أو الحُطمة وما أظنها سوى الجحيم ـ أعاذنا الله منها ـ. في الطريق، أرى اسطوانات غاز يدحرجها الحراس وهي خارجة من الورش ذاهبة الى حفرة النار كما ظننت. نظرت الى إحداها لأجد مكتوبا عليها «انتاج غاز الشمال». ألسنة اللهب المتصاعدة تلوح لي من بعيد فيما تلفح ساقي ووجهي موجات حرارة خانقة. رائحة شواء كريهة تملأ المكان وتثير الغثيان، وأصوات صراخ

وعويل تصل مسامعي، وأنا ما زلت أحاول أن أبقى متماسكا رابط الجأش. نتوقف قليلا ليطلب مني الحارس لبس البزة ويخبرني بأنني لن أخطو خطوة واحدة داخل النار، ولن نصل بواباتها السبع، وإنما سأطل عليها من فوق السور بعد أن نصعد التلة، وهذي هي تعليماته التي تلقاها. نبدو مع رفيقي الحارس وكأننا فريق تلفزيوني قدمَ لعمل فلم وثائقي عن بركان ونحن نتقدم صوب فوهته، إلا أن هذا البركان لا يقذف حممًا من الحجارة بل أرواحًا وأجسادًا وسط صهارة الغضب الإلهي. يطمئنني الحارس بأن السور معزول بمادة تمنع انتقال الحرارة وأنه يمكنني أن اتكأ عليه بأمان لألقي نظرة. بدا لي وكأنه نوع من الصوف الصخري لمنع انتقال الحرارة وما أكّد ظني هو وجود علامة «روك وول» مثبتة على طرف السور. مع اقترابنا بدأت قواي تخور. أشعر بانقباض في بطني وغثيان ورغبة عارمة في التقيؤ، إلا أن الحارس سارع ليسندني، ثم مدّ يده بشي الى انفي لأشمه، فعادت إليّ أنفاسي، واستعادت قدماي شيئاً من ثباتهما.

نبلغ حافة السور لنطل على قعر سحيق لا يُرى له قرار، تتصاعد منه ألسنة لهب لا يُدرك منتهاها. أسمع صوت أناس يستغيثون تحت مراوش تديرها أذرع آلية تشبه تلك التي في خطوط إنتاج السيارات، لكنها هنا تسكب سائلا يغلي كالماء الحارق، وكأنهم في حمّام جماعي داخل سونا جهنمية. على الجانب الآخر، أناس خرجوا لتوّهم من ذلك «الحمام»، يلفّون أجسادهم بأرواب من سلاسل، ثم يُسحبون بها فوق شوك يخترق اللحم والعظم فيتعالى صراخهم مع كل خطوة. لم أطق مشاهدة المنظر فتقدمت بمحاذاة السور، لأرى ثلاثة أجساد يقفون متحلقين وسط صندوق دائري من حديد كأنه القدر، والنار تضطرم أسفل منه وهم يلعبون أوراقاً شبيهة بالكوتشينة. يبدو أن أحدهم قد غش الآخر فأمسك بعنق صاحبه وهوى عليه ليضربه ليهرع الثالث منهم ليصلح بينهما. يتقافزون من حر قاع القدر ومع ذلك لا ينفكون عن العراك. تبدو الوجوه مألوفة بالرغم من كآبة المنظر وسوء المنقلب. أدقق النظر فإذا بنتنياهو، هو الذي يحاول أن

يصلح بين الإثنين وقد أمسكا بتلابيب بعضهما بعضاً وكأن ما بهم من أهوال لا تكفي. يحاول فك الاشتباك بينهما ليتلقى هو الآخر لكمات تطرحه معهم في قاع القدر ليقفز من حرارة ما يوجس، التفت للإثنين الآخرين فإذا بهما صدام حسين وحافظ الأسد.

ناديت عليهم من فوق السور:

«ما الذي ساقكم إلى هذا المصير؟»

رفع نتنياهو رأسه وصوته يتهدّج:

«الدماء. الدماء. كم من أرواح أُزهقت بسببنا، وكم من جراح خلفناها في صدور الأبرياء. كل واحد قد أثخن في الأرض قتلًا وقهرًا».

قلت لهم:

«لكنكم - وحسب ما أذكر عنكم - مؤمنون، بل وحتى أحدكم مات ولسانه يلهج بذكر الله، وإن اختلفت عقائدكم».

يرد صدام وعيناه تتوهجان من خلف اللهب:

«أتظن ان ترديد كلمة او اثنتين كفيل بالنجاة؟ لا ينجو من غضب الله الا من كفّ أذاه عن خلقه ولم تتلوث يداه بدماء آخرين. أما نحن، فملأنا السجون وخربنا البيوت وأزهقنا الأرواح بما جنت أيدينا».

سألتهم:

«وما الذي حملكم على ذلك؟»

أجاب حافظ بصوت متهالك:

«شهوة السلطة. حب الهيمنة والتحكم بمصائر الآخرين. فالسلطة حين تُطلق من عقالها تصبح مفسدة، وحين تكون مطلقة، مع غياب الضمير والقانون، تصير الفساد المطلق».

قلت: «لكن وعيكم بهذا لم يمنعكم من التوقف؟»

أجاب صدام:

«كنا نحسب أننا نُحسن صنعا. والبعض يظن أنه يبني أمة ذات رسالة خالدة».

قاطعته بتعجب:

«تحسنون صنعا وتبنون أمة بذبح أبنائها؟! هذا جنون».

أجاب نتنياهو بصوت واهن:

«هو كذلك».

لكن صدام استدرك قائلا:

«الأمر لم يكن كله منّا وحدنا، فقد كنا جزءاً من نظام أكبر، وقوى أوسع، ودول ومصالح تتجاوزنا».

قلت:

«وهل الله سيحاسب الدول والأنظمة والمصالح؟ أم سيحاسب الأنفس بما كسبت والأفراد بما عملوا؟»

يتدخل حافظ قائلا:

«بالرغم مما كنا نملك، إلا أننا لم نكن أحرارًا تماما كما يخيّل لك. فنحن لسنا مخيرين دوماً في إرادة قراراتنا، بل مدفوعين أحيانا بما لا نملك ونعي».

تركت الثلاثة يعودون لما كانوا عليه من عراك، وأنا ما زلت عاجزاً عن فهم هذه الجدلية بين حرية الإرادة وقسوة الحتمية التي أتى على ذكرها، مثلما كنت عاجزا من قبل عن فهم طلبات مكتب الشكاوى في الأعراف. تابعت السير بمحاذاة السور بخطوات متوجسة، خشية أن تزل قدمي، فإذا بي ألمح وجوهاً أعرفها من دنياي، رجالاً من المسلمين الموحدين، المحافظين على شعائرهم وبعضهم عمل معي في مركز الهيئة - لا، ليست هيئة الترفيه. بل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. هالني

أن أراهم هنا يتلظّون في الجحيم. كنت أعلم بسوء خلق بعضهم لكن لم يخطر ببالي يوماً، ولا في أشد كوابيسي قتامة، أن يكون مآلهم في سقر.

الوضع يوجع الروح ويمزق الفؤاد حين ترى من عرفتهم يومًا بأسمائهم ووجوههم، بل ربما من كان قريبًا منك أو زاملَك في العمل، يتلوّى في العذاب هنا. في تلك اللحظة تذكرت حديث أنجلينا جولي معي، يوم أصرّت على ألا تخطو إلى الجنة قبل أن تطمئن إلى مصير أمها. اقتربتُ منهم مذهولًا، وسألت أحدهم: «ما الذي سلككم في سقر؟» لكنه لم يسمعني، ولم يعرفني خلف هذه البدلة التي أرتديها. كل ما فعله أنه مدَّ يده يستجدي إراقة قطرة من ماء الجنة أُفيض بها عليهم، علَّها تبرّد أجسادهم المستعرة. التفتُّ إلى مرافقي أستأذنه أن أعود أدراجي إلى آخر كبينة مررنا بها عند منطقة الخدمات، لأسحب خرطوم الحريق وأرشّ عليهم شيئًا من الماء، لكنه أبى بشدة، وأجابني بصرامة لا تحتمل جدالًا.

واصلت السير لأرى رجلين ظهرا لي وكأنهما يرقصان سويةً. أحدهما يلطم كتفيه بسلاسل من حديد وكأنه ينزع جلده ليحل محله آخر، والثاني يمد يده وكأنه يحيّى صاحبه بذراعه الممدودة، دققت النظر فإذا بالأول هو الخميني، والآخر أدولف هتلر. لم تكن رقصتهما إلا قفزات يائسة في محاولة لدرء اللهيب المشتعل من حولهما.

لم أستطع أن أخاطب الأول فوجهت حديثي للآخر:

«لو تدري ما سجله التاريخ عنك وما قيل فيك!»

رد متسائلاً: «وماذا قالوا؟»

قلت: «أنت من أكثر الشخصيات دموية في التاريخ. قُتل الملايين من الأبرياء حول العالم بسببك».

ابتسم بمرارة وأجاب: «خصمي الأمريكي قتل أكثر مني».

قلت: «ولكنك ارتكبت الفظائع، أنت من شوى البشر في المحارق».

ردّ بحدة: «وكذلك خصمي حين شوى اليابانيين بقنابله النووية. لكن التاريخ يكتبه المنتصرون».

قلت: «كلاكما حمّل العالم بحوراً من الدم وأبشع فظائعكم هو أنكم حرّقتم البشر وشويتموهم أحياء».

يجيب بابتسامة ساخرة: «ها نحن الآن، والله ذاته يشوينا في حفلة أعظم من حفلاتي وحفلات خصمي. ما فعلناه نحن، لا شيء أمام ما يفعله بنا الآن».

يميل برأسه مكملاً بجرأة ممزوجة بالجنون:

«أتدري؟ نحن أرحم منه!» وما إن نطقها حتى انقضّ عليه شواظ من نار فأحرقه.

أضاف وهو يتلوى:

«على الأقل، ضحايانا ماتوا مرة واحدة فاستراحوا، أما ضحاياه فيذوقون العذاب مرارًا ولا يموتون».

تعوذت بالله مما سمعت، وأكملت طريقي بخطوات متثاقلة تحت تأثير وزن البدلة التي أرتدي فيما صوت الخميني يلاحقني وهو يصرخ «يا رحمان. يا رحيم». شدّ رفيقي حبلا بيني وبينه خشية أن أزلّ أو أعثر فأتردّى مع أهل الجحيم. مجرد التفكير في ذلك يصيبني بالغثيان. لمحتُ قفصًا من حديد تتصاعد النار من أطرافه، وفي داخله رجل يختنق بالدخان والحرارة، ناديت عليه بصوت مرتجف:

«من تكون ايها المسجون؟»

أجاب من بين القضبان: «أنا أبو بكر البغدادي».

تراجعت في مكاني مذهولا وسألته:

«ما الذي جنيت لينتهي بك الحال هنا؟»

قال ببرود: «ما صنعت إلا ما أمرني به ربي».

قلت: «وكيف ذلك؟»

قال: «جاهدت في سبيله».

اعترضت: «ولكنك قتلت الرجال، وسبيت النساء، وأسرْت الأطفال».

ابتسم ابتسامة متكسرة وهو يقول: «لم أفعل سوى ما فعله أهل القرون الأولى المفضلة، لم أزدْ على أفعالهم شيئا».

صرخت: «ولكنك قطعت الأيدي ورجمت النساء وجلدت الشباب. وحتى معاصروك من أهل زمنك لم يقرّوك على صنيعك».

أجاب: «هم لم يُقرّوا شرعيّتي، لكنهم مُتفقون على شرعتي».

ترددت للحظات ثم سألته: «ماذا تعني؟»

أجاب: «هذا ما أمرني به ربي تطبيقه في دولة الخلافة. إنما اقتفيت أثر السلف الصالح، واحتذيت بهم، وتتبعت آثارهم وتعلمت من كتبهم، ولم أخرج عما فعلوه».

قلت بمرارة: «يداك ملطّختان بالدماء».

ابتسم في كبرياء: «لعلّك لا تعرف معنى الجهاد. أنا بقية السلف الصالح، لكن قلْ لي. أين هم الآن؟ ولا تقل أنّهم يتنعّمون في الفردوس، بينما أنا الذي عملتُ بما دوّنوه، واتبعت ما سطّروه أقبع هنا في الجحيم!»

ترددت لحظة ثم قلت: «لست أدري».

زمجر بصوت مثقل بالاحتجاج:

«لن يكون عدلاً أن أُلقى هنا، بينما من اقتفيت آثارهم يتقلّبون في أحضان الحور العين».

غادرت المكان متثاقلاً، وقد تسللت إلى لساني سخرية مرة، فقلت لمرافقي:

«أما في هذا الدرك مكتبٌ للشكاوى كما رأيت في الأعراف؟»

فأجابني بنبرة جازمة لا تحتمل جدالًا:

«كلا. هنا لا شكاوى ولا اعتراضات. من بلغَ هذا الدرك، فقد حُسم أمره، ومصيره محتوم».

ثم استوقفني أمرٌ غريب آخر: لم أرَ امرأة واحدة في هذا الجحيم. سألت مرافقي:

«أما رأيت نسوة هنا؟»

ليجيب بالنفي.

فقلت في نفسي: لعلّ ما ذقنه في دنياهن من نصبٍ وتحيّزٍ واستغلالٍ كافٍ ليُعفيهن من عذابٍ آخر، أو لأنهن أقل دموية وبطشًا من الرجال، إذ أنّ أكثر من رأيت هنا إنما هم ممّن لوّثوا أيديهم بالقتل أو الظلم والإيذاء. بدا لي أن من انغمس في شهوات جسده وحدها، دون أن يظلم غيره أو يعتدي عليه، وجد طريقه إلى الجنة. وهي، ويا للمفارقة، لم تُخلق إلا لإشباع شهوات الجسد. أما الشهوات التي تتعدى حدود الذات والمقرونة بالتسلط على الآخرين والإضرار بهم، فهي وحدها التي تهوي بأصحابها في النار. هنا بدا لي الفارق جليّاً. من أفاد الناس ونفعهم أو كفّ أذاه عنهم فهو من أهل النعيم ومن أساء إليهم وأوقع بهم الأذى فهو في الجحيم. وكأنّ الجنة والنار لا تُقاسان بكثرة الطقوس ولا بما حُفظ من النصوص، والمصير لا يكتبه اعتقاد ولا يسطّره لسان، بل بما تركه الإنسان في قلوب الآخرين من رحمةٍ أو جراح، فالخلود في النهاية ليس جزاء الإيمان ولا الكفر، بل هو حصاد الأثر الذي يخلّفه المرء في حياة الآخرين، الخلود حصاد الأثر.

لكن ما أذهلني حقًا أنّ المعذّبين في النار، على شدّة ما يعانون من تعذيب وحرقٍ وشويٍ وتقطيع للوجوه والأمعاء، يظلون أحياءً: يأكلون ويشربون، تُستبدل جلودهم بأخرى، يتحدثون ويتخاصمون بل ويتصارعون، كأنّ الموت قد هجرهم إلى الأبد. هنالك خطرت لي فكرة مرعبة: إن الزمن حين يطول ويتمدد، يسلب الأشياء حدّتها، ويبتلع الفوارق بين اللذة والألم. الدقيقة الأولى هي الجحيم كله، والساعة الأولى

هي ذروة العذاب، واليوم الأول هو الحارق الماحق. لكن مع مرور الأسابيع والسنين والقرون، يتحول كل شيء إلى عادة، حتى العذاب يصير مألوفًا، وحتى النعيم يغدو تكراراً، لا يثير دهشة ولا يمنح ارتعاشًا.

قلت في نفسي: ما الفرق إذن بين من يُشوَى هنا ومن يتنعّم هناك؟ ربما الفارق ليس إلا في الوهلة الأولى، لحظة الاصطدام بالحدث. بعدها يعتاد الجسد، ويتبلّد الإحساس، وتخمد الرهبة وتتساوى الحالان، ويصبح الألم عادةً مثلما أن اللذة عادة، وما من فارق بينهما سوى خيط واهٍ. وكأنّ الجنة والنار وجهان لعملة واحدة؛ كلاهما دوام بلا انقطاع، لكنّ أحدهما اكتسى بطبقة من السكر والآخر دُهن بطبقة من العلقم. وما هما في جوهرهما إلا نهرٌ أزلي واحد، يسير فيه البشر إلى ما لا نهاية، فلا يجدون في آخر المطاف إلا أنفسهم وقد ألفوا ما يكرهون وما يحبون سواءً.

سرت صامتًا لحظات، وظلال الأنفس التي تتعذب من حولي تتراقص على سور النار. التفتُّ إلى مرافقي وسألته بصوتٍ مبحوح:

«أخبرني. ما الجدوى من الخلود؟»

نظر إليّ مستغربًا:

«ماذا تعني؟»

قلت:

«أليس النعيم إذا طال يغدو عادة، والجحيم إذا امتدّ يصبح ألفة؟ إن اللذة في أول لحظة هي ذروة النعيم، كما أن الألم في أول ومضة هو قمة العذاب. لكن مع امتداد الزمن يتشابه الحالان، فكلاهما أسيرا دوامٍ لا يتبدل، وكلاهما يذوبان في رتابةٍ أزلية تُهلك الروح أكثر مما تُبهج أو تُؤلم. الامتداد الأبدي وحده كافٍ لمحو المعنى وابتلاع الدهشة التي سرعان ما تذوب مع مرور الأزمنة».

ابتسم مرافقي ابتسامة غامضة وقال:

«ربما العدل ليس في دوام النعيم أو العذاب، بل في الخاتمة نفسها. في أن يكون هناك حدٌّ يقف عنده الزمن. أما الخلود فهو سؤال معلّق وصرخة لا يُسمع صداها. هو العقوبة الكبرى والنعمة العظمى في آن واحد».

رفعت بصري إلى الأعلى، فإذا بالدخان يتصاعد ملتوياً كأنه سطور سوداء تُمحى لتُكتب من جديد. وجوه المعذّبين تتداخل مع ملامح أعرفها: وجوه أصدقاء عبروا في حياتي، أعداء تركوا ندوباً في قلبي، وأقارب في غياهب الذكرى. خطواتي صارت أثقل، لا بسبب النار التي تحيط بنا، بل بسبب الثِقل الذي استقر في قلبي: ثِقل المعرفة حين تأتي بلا رجعة. توقفت وطلبت من مرافقي أن يعيدني فقد اكتفيت بما رأيت. يخبرني بأننا للتوّ بدأنا وان هناك الكثير لنرى من الأهوال لكني أصريّت على العودة ما دام هناك متسع لذلك، قبل أن أفقد عقلي. عدنا أدراجنا، نزولاً من أعلى السور ثم عبورا بمنطقة الخدمات، حيث خلعت البزة ثم اجتزنا المتاهة واخيرا بلغنا سور الجنة ويا لها من لحظة مفارقة، فبمجرد أن لامست رئتاي هواءها البارد المنعش حتى نسيت كل ما مررت به من أهوال أهل النار، وتلاشت من نفسي كل صور العذاب. ما كادت قدماي أن تطأ ارضها اللينة حتى سمعت مواء قطة تقفز فوق وجهي فأحاول أن أدفعها عني بلمحة بصر ليتغيرَ الزمان والمكان حولي وأجدَ نفسي مستيقظا على سرير ابيض تحيط به الأجهزة. اسمع صوت الممرضة وهي تبعد القطة ثم تلاحظ حركتي، فتهرع لتنادي على الفريق الطبي.

بعد أيام كنت في غرفة نومي إلى جوار زوجتي التي غمرها الفرح بسلامتي وعودتي لبيتي، نتناول الفشار مستمتعين بمشاهدة أحد الأفلام، وكنت قد رويتُ لها سابقاً ما مررت به. تعلّق على الضحية المسكين الذي مات في الفلم. تمتمت بكلمات بيني وبين نفسي: «هل نحن حقاً ضحايا حين نموت؟ أظن اننا ضحايا حين نعيش وليس حين نموت، بل نحن ناقصون غير كاملين حتى نموت. بقدر ما انّ أنفاسنا وتجاربنا وأحاسيسنا

كلها ستتوقف يوما حين يُعلن موتنا ونحن موقنون بذلك ومتأكدون منه، إلا انّ هذا التوقف عن العيش يبدو لنا الآن كإشاعة او كسوالف عجائز، يتناقلونها عقب استراحة شاي بعد العصر، وليس حقيقة صلبة راسخة. لا نستطيع أن نقارن حالنا بعد مماتنا بحالنا ونحن نعيش، إلا بقدر ما نستطيع أن نقارن حالنا ونحن نعيش بما كنا عليه قبل ان نولد. وجدنا أنفسنا في هذه الدنيا ولا نملك أن نتحدث عن ما كنا فيه قبل ان نولد، بقدر ما لا نملك أن نتحدث عن ما نحن صائرون إليه بعد ان نموت».

تلتفت نحوي لتسألني ان كنت قلت شيئا لأجيبها: «إن لم تجدوني في الجنة بينكم، فاسألوا عني في مقهى درب الزلق».